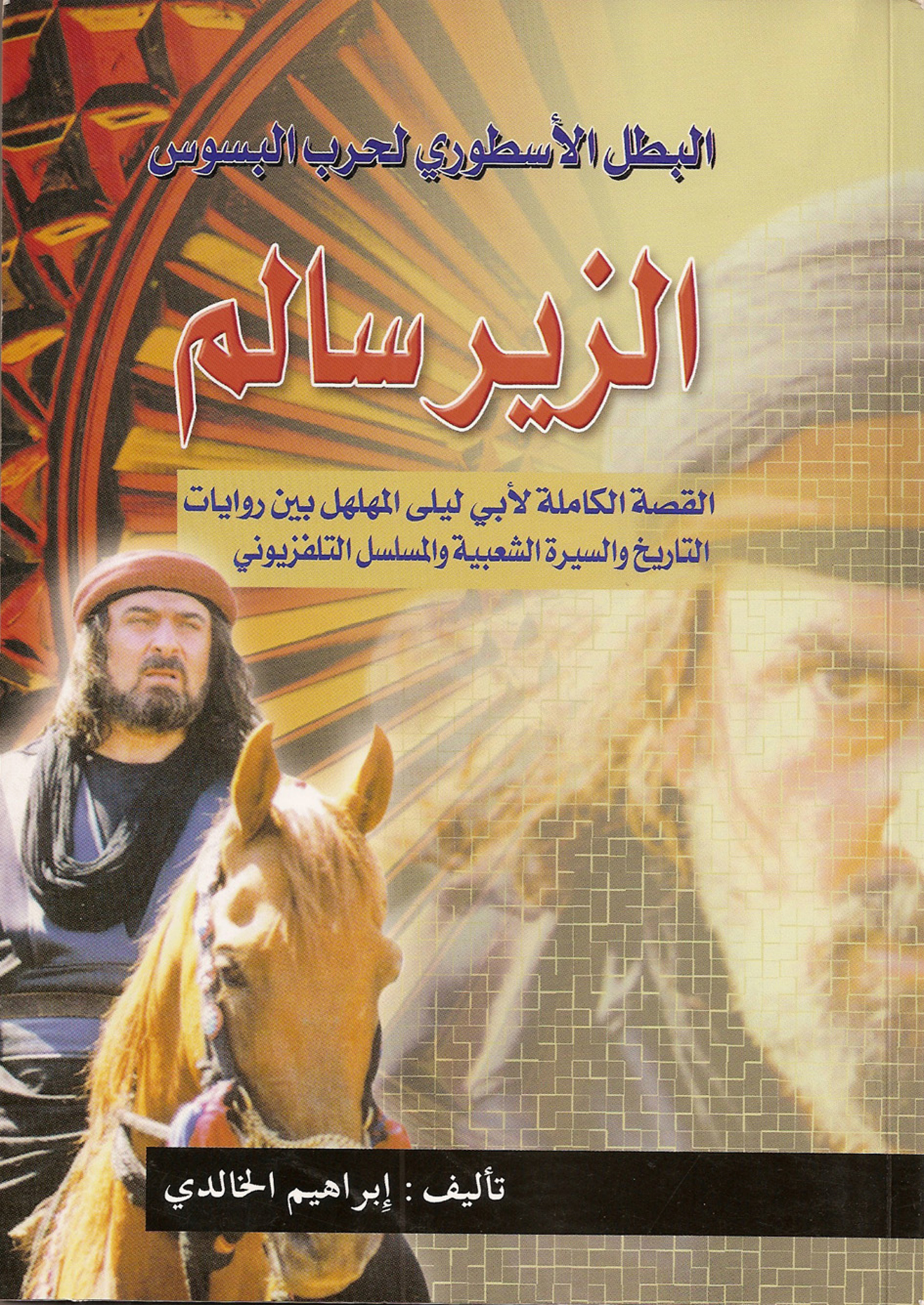
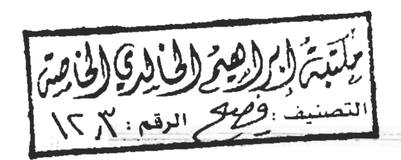

البطل الأسطوري لحرب البسوس
الزير سالم
القصة الكاملة لأبي ليلى المهلهل بين روايات
التاريخ والسيرة الشعبية والمسلسل التلفزيوني
تأليف : إبراهيم الخالدي



البطل الأسطوري لحرب البسوس

الزير سالم

القصة الكاملة لأبي ليلى المهلهل بين روايات التاريخ والسيرة الشعبية والمسلسل التلفزيوني



تأليف: إبراهيم الخالدي

● **عنوان الكتاب:** البطل الأسطوري لحرب البسوس

الزير سالم

القصة الكاملة لأبي ليلى المهلهل بين روايات التاريخ والسيرة الشعبية

والمسلسل التلفزيوني

● **المؤلف:** إبراهيم حامدالخالدي

● **عدد الصفحات: ١٤٧صفحة من القطع العادي.**

● الناشر:

شركة المختلف للنشر والتوزيع

العنوان: الشويخ - ص.ب: ٦٤١٨٥ - الرمز البريدي: ٧٠٤٥٢

تلفون: ٤٨١٢٠٥٣/٤٨٢٣٤٣٤ - فاكس: ٤٨١٢٢٤٨

● التوزيع:

المجموعة الاعلامية العالمية

العنوان: الشويخ - ص.ب: ٦٤١٨٥ - الرمز البريدي: ٧٠٤٥٢

تلفون: ٤٨٢٤٢٤٩/٤٨٢٣٩٣٩ - فاكس: ٤٨١٢٢٤٨

الطبعة الأولى - الكويت ٢٠٠٢م

المحتويات

لا تصالح..

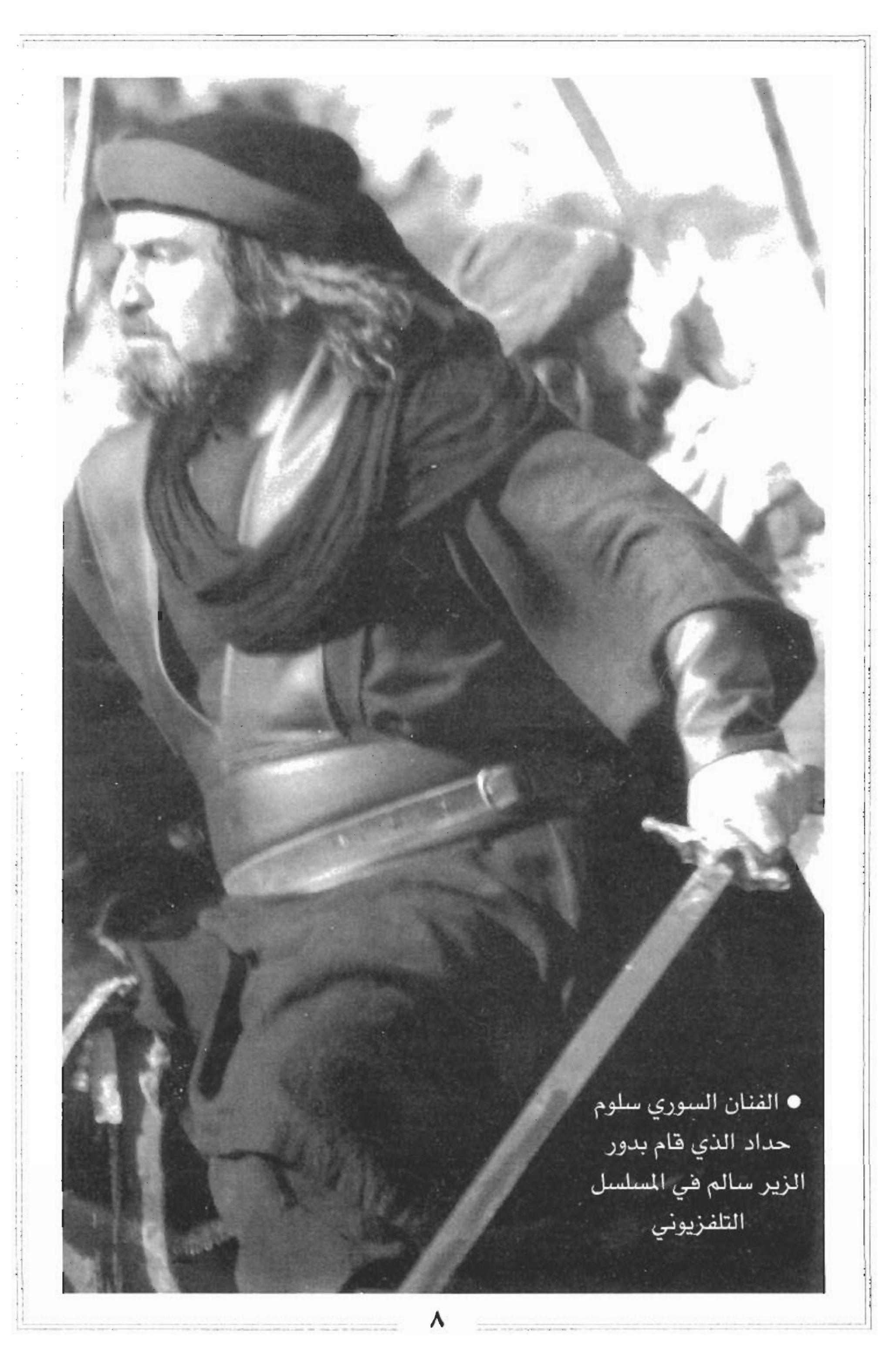
ولو توّجوك بتاج الإمارة.

كيف تخطو على جثة ابن أبيكَ..؟
وكيف تصير المليكَ..
على أوجه البهجة المستعارة؟

كيف تنظر في يد من صافحوكَ..
فلا تبصر الدم.. في كل كفّ؟

إنّ سهماً أتاني من الخلف..
سوف يجيئك من ألف خلفَ

● أمل دنقل



• الفنان السوري سلوم حداد الذي قام بدور الزير سالم في المسلسل التلفزيوني

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

■ بادئ ذي بدء:

طالما حسبنا أن الجاهلية الدينية التي كانت العرب تعيشها قبل الإسلام انسحبت على كافة مناحي الحياة، ونسينا أن جاهلية دينية أعمق لدى اليونان مثلاً ولدت حضارة فكرية ومعمارية مازالت ظاهرة للعيان حتى يومنا هذا.

عققنا جدودنا وقلنا: «ها هم اقتتلوا على ناقة، وتفانوا من أجل سباق خيل» (!!)، ونسينا في غمرة هذا العقوق أن نستنطقهم فنسألهم: «هل كانت دوافعهم للحرب بهذه التفاهة فعلاً؟، وهل كانت دماؤهم رخيصة عليهم إلى هذه الدرجة؟».

عفواً آباءنا.. من حنفاء ووثنيين وكتابيين ومعتنقي ديانات وأفكار أخرى!!

... لقد ظلمناكم كثيراً، وهذه الدراسة في أحد أهم حروبكم محاولة حييّة لتقديم الإعتذار!!!

كانت حرب البسوس ومازالت هي الحادثة الأكثر حضوراً في الذاكرة الشعبية العربية عن الفترة السابقة للإسلام فيما يتعلق بالتاريخ العربي خارج إطار مكة وقبيلة قريش.

وأسهمت السيرة الشعبية التي تم تداولها شفاهية في عصور سابقة ثم طباعتها منذ سنوات طويلة في ترسيخ صورة بطل تلك الحرب... «الزير»، وجعله واحداً من نخبة النخبة في تاريخ الفروسية والبطولات العربية.

وكان من الممكن للزير أن يظل حبيس الكتب وجلسات السمر لولا أن «العولمة» وقفت إلى جانبه دون قصد منها، فجعلته نجماً خارقاً «سوبر ستار» طوال السنة السابقة لصدور هذا الكتاب التي تتصفحونه الآن!!

ففي شهر رمضان ١٤٢١هـ (ديسمبر ٢٠٠٠م) عرض تليفزيون الشرق

الأوسط (أم بي سي) وتبعته بعد ذلك معظم الفضائيات العربية مسلسلاً سورياً عن «الزير» بل وقصة حرب البسوس كاملة من أول الأول إلى آخر الآخر على مدى أربعين حلقة تلفزيونية، فحاز على نجاح جماهيري قل نظيره لدرجة أن هذا المسلسل صار مدار الأحاديث الإجتماعية و«سوالف الدواوين» و«جلسات المقاهي» و«دردشات شاي الضحى» لفترة طويلة على امتداد خريطة المشاهدين في الوطن العربي.

وشخصياً طوال هذه الفترة.. كانت الأحاديث تدور بيني وبين زملاء وأصدقاء كثر حول مساحات الواقع والخيال في المسلسل المنتج، وكان السؤال الدائم بيننا ومفتاح النقاش اليومي: «هل ما رأيناه في المشهد الفلاني.. حدث فعلاً؟».. «هل ذكر تاريخياً أم هو من تهويمات المؤلف؟»، و«أين يكمن الخط الفاصل بين ما هو حقيقي وبين ما هو محدث من قبل مؤلف المسلسل الشاعر السوري ممدوح عدوان والمخرج حاتم علي؟».

كما كان النجاح الاستثنائي للفنان سلوم حداد في أداء دور «الزير» والفنان «رفيق علي محمد» في أداء دور «كليب» دافعاً لأن يعاد الاهتمام بشخصية الزير فظهرت الكثير من مواقع الإنترنت حول هذا الموضوع، وصرنا نبحث في بطون الكتب عن الرواية التاريخية للحرب، وعادت كتب السيرة الشعبية للظهور بشكل بارز في واجهة المكتبات، وأعيد طباعتها في أماكن كثيرة من الوطن العربي بل صرنا نقرأ إسم «الزير» يتكرر في كثير من القصائد خاصة العامية منها نموذجاً للفروسية والثورة!!

وفي فترة مشاهدتي الأولى لذلك المسلسل كنت أحرص على دراسة حكاية الزير من واقع الروايات التاريخية والسيرة الشعبية مقارناً ما أقرأ بما أشاهد يومياً في المسلسل، وكل هذا بدافع بسيط: هو مجرد الإجابة على أسئلة الأصدقاء وأسئلتي أنا قبلهم، ورأيت أن متابعة المسلسل مع هذه المراجعة اليومية تزيد المشاهدة متعة، فأخذت الأمر بجدية أكبر، وصرت أكتب وأقارن بين الروايات المختلفة ثم توسعت في الفكرة بتشجيع من الأصدقاء ليأتي هذا الكتاب الذي أرى أنه يحاول جاهداً تقديم الصورة الحقيقية لشخصية الزير وحرب البسوس دون إهمال للجوانب التاريخية والفلكلورية التي أحاطت

بهما.

ومن يبحث عن مصادر «حرب البسوس» لن يجد أمامه مفترق طرق واضح بين الواقع وخيال بل سيجد الطريقين متشابكين بطريقة من الصعب الفصل بينهما إذ يخالط الواقع الخيال بشكل يحتاج من الباحث إلى الوقوف عند كل خبر، ومحاولة تقصي الحقيقة التي قد لا يوفق إليها دائماً، وعموماً وجدت خلال بحثي أن أهم مرجعين موثوقين لهذه الحرب هما:

١- الكامل في التاريخ لابن الأثير.

٢- الأغاني لأبي فرج الأصفهاني.

وما عدا ذلك من المراجع فأحد ثلاثة أمور: فإما مساعد في ذكر أخبار ونتف متناثرة عن الحرب - أو عيال متكئ على المرجعين السابقين فينقل ويعيد الصياغة ويجتهد من عندياته!!

أما النوع الثالث من المراجع وهو أخطرها وأكثرها إغراءاً للباحث وإغراقاً له في الأوهام، فهي تلك المراجع التي تقدم أكاذيب الرواة وانتحالاتهم وزياداتهم على الحرب حتى حولوها إلى أسطورة خيالية يصعب تصديق كثير من تفصيلاتها، ولعل هذه الكتب كانت هي المرجع الذي استقى منه أصحاب «السيرة الشعبية» مادتهم فيما بعد.

هذا فيما يتعلق بالكتب القديمة أما الكتب الحديثة فهناك العديد من المراجع التي يمكن اعتبارها مفيدة في هذا المجال، ولعل أبرزها «أيام العرب في الجاهلية» لمحمد جاد المولى وآخرين، و«تاريخ الحروب العربية» لسلمان الصفواني مع الحذر من أكاذيبه، و«أخبار المراقسة» لحسن السندوبي مع الحذر من زياداته، والكتب الثلاثة الأخيرة أكثر توسعاً في الموضوع من الكامل والأغاني، ولكنها في النهاية لم تف بالموضوع بالشكل المرجو، وباستثناء الأول لا يطمئن الباحث لصحة كل ما ورد فيهما.

وهناك كتب أخرى تناولت الحرب من أحدثها كتاب «شعراء تغلب في الجاهلية» لعلي أبي زيد، وهو كتاب مهم ومفيد، وهناك كتب لم تصل إليها يدي لأتمكن من الحكم عليها، ومنها «تاريخ البسوس» لمؤلف مجهول وهو

مـخطوطة في المكتبـة الظاهـرية، وكتـاب «بكر وتغلب ابني وائل بن قـاسط» لمحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ، ويذكر ابن النديم في «الفهرست» عدداً من الكتب التي جـمعت أشعـار بكر وتغلب والمهلهل منذ العصـور الإسـلاميـة الأولى.

أما السيرة الشعبية فهي موجودة في المكتبات العربية ومنتشرة على نطاق واسع رغم سماجة لغتها وأغلاطها المغيظة، وقد أدت مع عوامل أخرى إلى ذلك الخلط بين الواقع والخيال في سيرة الحرب والذي أسلفنا ذكره.

....

نسأل الله التوفيق، ونستقيله من الزلل...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين.. إمامنا وقرة العيون محمد بن عبدالله، وعلى آله الطيبين الأطهار، وصحبه الميامين الأبرار، ومن والاه من التابعين الأخيار إلى يوم الدين.. آمين.

● إبراهيم حامد الخالدي

(الكويت: في يوم الخميس ١٦ شعبان من سنة ١٤٢٢هـ. الموافق ١ نوفمبر ٢٠٠١م)

الفصل الأول:

تغلب وبكر... نسباً وتاريخاً



● الفنان عـــابـد فـــهـــد الذي قـــام بدور جـــســـاس في المسلسل

(نسب تغلب وبكر، وأشهر أعلامهم في الحرب)

ينقسم عرب الجاهلية إلى أمتين كبيرتين هما «القحطانية، والعدنانية»، وبينهما وقفت «قضاعة» التي كانت تنسب حيناً لعدنان وحيناً آخر لحمير من قحطان، ولعل نسبتها إلى قحطان هي الأرجح، ومن قضاعة اشتهرت قبائل مثل: «بلي، وجهينة، وعذرة، وكلب، وبهراء، ونهد، وجرم».

أما القحطانية فهم شعوب كثيرة أشهرها «كهلان، وحمير»، ومن كهلان عُرف «الأزد» ومنهم الأنصار والغساسنة، ومن كهلان أيضاً: «بجيلة، وخثعم، وهمدان، وطيء، ومذحج، وعاملة، وجذام، ولخم، وكندة، ومراد، والأشعريين»، ومن حمير ظهر التبابعة وملوك اليمن.

وأما العدنانيون فقد انقسموا إلى: «مضر، وربيعة» وهما القسمان الأشهر، وهناك أيضاً «إياد، وأنمار»، فأما مضر فانقسموا إلى: «الياس (خندف)، وقيس عيلان»، وأشهر بطون خندف: «كنانة ومنها قريش، وبني أسد، وهذيل، وتميم، وضبة».

وانقسمت قيس عيلان إلى بطون كثيرة أشهرها: «هوازن ومنها عامر بن صعصعة، وغطفان ومنها عبس وذبيان، وسليم، وعدوان، وثقيف، وباهلة».

أما «ربيعة» وهم محور كتابنا هذا فأشهرهم بنو أسد بن ربيعة، وهؤلاء انقسموا إلى «عنزة، وعميرة، وجديلة»، ومن جديلة ظهر بنو «عبدالقيس بن أفصي بن دعمي بن جديلة» وأخوتهم بنو «هنب بن أفصي».

وانقسم هنب إلى القبائل الأربعة الآتية:

١- وائل بن قاسط بن هنب: وهو جد تغلب وبكر وعنز وغيرهم.

٢- النمر بن قاسط.

٣- عامر بن قاسط: وذريته يسمون «غفيلة».

٤- معاوية بن قاسط: ودخل بنوه في «عاملة» القحطانية. (١)

■ ■ ■

أما «تغلب وبكر» وهم مدار بحثنا في هذا الكتاب ومربط الفرس في الحديث ورحى الحرب التي نزمع خوض أخبارها فنفصل القول في تفريعاتهما كالآتي:

١- تغلب بن وائل:

جد جاهلي سبق الإسلام بحوالي خمسة عشر جيلاً (أي ما يتجاوز الأربعمائة سنة)، وصار أب قبيلة عربية كبيرة، وهو رجل ذكر ولا عبرة بقولهم في الأشعار: «تغلب ابنة وائل»، فهم يقصدون القبيلة بالتأنيث لا الأب.

وأشهر أحياء تغلب «الأراقم»، وهم ستة أخوة من بني بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وهم «جشم، ومالك، والحارث، وعمرو، وثعلبة، ومعاوية»،وفي الأراقم بيت الرئاسة من قديم وعدد القبيلة وكثرتها.

وكانت العرب في الجاهلية تسمي تغلب «الغلباء» لكثرة غلبها وشدة سطوتها، فهم سنام ربيعة وأهل بأسها كما قال الشاعر:

وفي الغلباء تغلب أهل عزٍّ

وأحلامٍ تعود على الجهولِ (٢)

بل اعترف العرب بأكثر من ذلك فقالوا: «لو أبطأ الإسلام لأكلت تغلب الناس» دلالة على ما مثلته هذه القبيلة في الجاهلية من قوة ومنعة على صغرها مقارنة بالقبائل الكبيرة أيامها كتميم وهوازن (٣)، واستمرت هذه السمعة تحف بالتغلبيين قروناً طويلة، ونسمع أبا تمام الطائي يقول مادحاً مالك بن طوق التغلبي في القرن الثالث الهجري:

خُلقتْ ربيعة مذ لدن خُلقتْ يداً

«جشم بن بكرٍ» كفّها والمعصمُ

تغزو فتغلب «تغلبُ» مثل اسمها

وتسيح «غنمٌ» في البلاد فتغنمُ (٤)

وهذه أبيات من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي يعدّد فيها بعض الأعلام من تغلب في الجاهلية، فيقول:

فهل حُدّثت في «جشم بن بكر»
بنقص في خطوب الأوّلينا؟
ورثنا مجد «علقمة بن سيف»
أباح لنا حصون المجد دينا
ورثتُ «مهلهلاً» والخيرَ منه:
«زهيراً» نعم ذخر الذاخرينا
و«عتّاباً» و«كلثوماً» جميعاً
بهم نلنا تراث الأكرمينا
و«ذا البرة» الذي حُدّثت عنه
به نُحمى ونحمي المحجرينا
ومنّا قبله الساعي «كليبٌ»
فأيّ المجد إلا قد ولينا؟! (٥)

وأشهر من برزوا في «حرب البسوس» من تغلب:

● كليب «وائل» بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب:

ولقب بكليب حتى عُرف بهذا اللقب عوضاً عن اسمه الحقيقي «وائل»، وسبب ذلك أنه لما تولى الملك في معد، وبغى وتجبر على قومه صار يرمي جرو كلب له في المراعي، وحيثما بلغ عواء هذا الكلب كان يعد حمى خاصاً لكليب لا يرعاه أحد سوى من يأذن له حتى ضرب به المثل في العزة، فقال العرب: «أعزّ من كليب وائل». (٦)

وقد حدد الزركلي في «الأعلام» الفترة التي عاشها كليب بين عامي (٤٤٢ - ٤٩٢م)، ولا أراه قد باعد عن الواقع كثيراً كما أنه حدد وفاة المهلهل بنحو سنة ٥٢٥م أي بعد وفاة أخيه بثلاثة وثلاثين عاماً إلا أنه جعل وفاة جساس نحو سنة ٥٣٥م أي بعد وفاة المهلهل، وهو ما يخالف حقيقة الروايات المجمعة على أن المهلهل عاش بعد مقتل جساس. (٧)

● المهلهل بن ربيعة:

الأخ الأصغر لكليب واسمه عدي وقيل امرئ القيس، وقد وجدت المرزباني في «معجم الشعراء» والزركلي في «الأعلام» وضعاه في باب العين مع «عدي»، ولكن المرزباني أتى بقول غريب يستحق التفكير فيه إذ رجح أن عدياً هذا هو أخو المهلهل وهو المعني بقول الحارث بن عباد:

لهف نفسي على عديٍّ ولم
أعرف عديّاً إذ أمكنتني اليدان

ويذكر المرزباني أن عدياً عاش بعد موت أخيه المهلهل، وهو صاحب القصيدة المنسوبة للمهلهل ومنها قوله:

وامرئ القيس ميّت ما كرم أو (م)
دى وخلّي على ذات العراقي (٨)

ويعني بامرئ القيس أخاه المهلهل بينما يرى من نسبها للمهلهل أن المقصود هو «امرئ القيس بن أبان التغلبي»، ويعضّد قول المرزباني أن ابن حزم في «جمهرة أنساب العرب» ذكر عدياً أخاً لكليب والمهلهل.

واختلف المؤرخون قديماً وحديثاً على سبب تلقيبه بالمهلهل، فقالوا إن ذلك كان لطيب شعره ورقته، وقيل بل لقوله شعراً:

لمّا توعّر في الكراع هجينهم
«هلهلتُ» أثأرُ مالكَ أو صنبلا (٩)

وقيل بل لأنه أيضاً أول من قال الغزل فـ «هلهل الشعر».. أي رقّقه، وقال ابن سلام في «طبقات الشعراء»: (إنما سمّي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه، ومن ذلك قول النابغة: (أتاك بقول هلهل النسج كاذبِ)، وزعمت العرب أنه كان يتكثّر ويدّعي في قوله بأكثر من فعله) (١٠)، ويرد طه حسين على القول الأخير قائلاً: (الحق أن مهلهلاً لم يتكثّر، ولم يدع شيئاً، وإنما تكثّرت تغلب في الإسلام ونحلته ما لم يقل). (١١)

وقيل أن المهلهل أول من قصّد القصائد (أي جعلها طويلة وكان الشعر قبله مجرد مقطوعات قصيرة)، وبكر بن وائل تخالف ذلك فتقول: أن أول «قصد

القصيد» هو عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك البكري، ويزعمون أن عمراً هذا هو رفيق أمرئ القيس في رحلته إلى تركيا وهو المعني بقوله:

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه

وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا (١٢)

ونعود إلى المهلهل وأولياته التي نسبت إليه، فقالوا أنه أول من كذب في شعره بدليل قوله:

فلولا الريح أُسمع من بحجرِ

صليل البيض تقرع بالذكورِ

وهذه مبالغة شعرية واضحة لأن قتالهم كان في عالية نجد، وحجر قاعدة بلاد اليمامة فكيف يُسمع الصليل من هذه المسافة البعيدة؟!!

وعلاقة المهلهل بالشعر لصيقة من قبل ومن بعد، فهو شاعر سبق جميع شعراء المعلقات عصراً، وهو خال امرئ القيس صاحب المعلقة الأولى، وجدّ عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة الرابعة لأمه (١٣)، والأخير يقول في ذلك شعراً:

ورثتُ مهلهلاً والخيرَ منه

زهيراً نعم ذخر الذاخرينا

ورغبة من المؤرخين في صنع المفارقة المذهلة في شخصية المهلهل قبل وبعد مقتل كليب زعموا أنه كان فيه قبل مقتل أخيه «خنث ولين»، وهذا مستبعد لفروسيته ومشاركته في يوم السلّان أيام أبيه وفي يومي الكلاب وخزازى إلى جانب أخيه كليب، ولكن الثابت أنه ككثير من أهل الجاهلية ومن جاؤوا بعدها كان سكيراً. محباً للهو. كثير المغازلة للنساء في أيام السلم، ولذا كان كليب يسميه «زير النساء» (أي مكثراً لزيارتهن)، ويقول المهلهل عن هذا اللقب فيما بعد:

ولو نُبش المقابر عن كليبٍ

فيعلم بالذنائب أيّ زيرِ؟! (١٤)

والطريف أن لقب «الزير» الذي لم يكن المهلهل يقبل به في حياته، وهو لقب

شتيمة واستهزاء في الأصل صار الآن لقب مدح للمهلهل حتى وجدتُ من يشرح لي لقب الزير بأنه صاحب الصرخة في الحرب التي تشبه زئير الأسد.. وأي انزياح دلالي هذا (على لغة النقاد)؟!!

وكان المهلهل بالإضافة إلى شعره من فرسان العرب المعدودين في الجاهلية، وقد عدّ له الشيخ حمد الجاسر من الخيول كلاً من: «السلس، والشقراء، والمشقّر، والورد». (١٥)

● أمرؤ القيس بن أبان بن كعب بن زهير بن جشم بن بكر:

وهو من فرسان تغلب المعروفين، وذكروا أنه كان في الجاهلية من حكّام العرب - أي من قضاتهم - (١٦)، وهو الذي أشار إليه المهلهل عندما سأله الحارث بن عباد على فارس يكافئ بجيراً يوم «تحلاق اللمم» ليقتله، فقُتل ابن أبان بسبب هذه الإشارة كما سنذكر فيما بعد.

● السفاح التغلبي:

سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر، وهو موقد النار يوم «خزازى»، ولكن لا نرى له ذكراً ذا بالٍ في حرب البسوس، ولعله مات قبلها.

● ناشرة بن أغواث بن قعين بن مالك بن بكر:

شاب تغلبي كان كل فخره أنه قتل مربّيه همام بن مرة البكري يوم القصيبات، ولم يلبث أن قُتل بعد ذلك.

■ ■ ■

٢- بكر بن وائل:

أخو تغلب وبالتالي فقد عاصره قبل الإسلام بأكثر من أربعمائة سنة، وذريته يوم حرب البسوس كانوا أكثر عدداً من تغلب، ولولا أن بعض فروعهم اعتزلت الحرب في بدايتها لما تمكنت تغلب من تحقيق تلك الإنتصارات الساحقة أول الأمر.

وبكر بن وائل من قبائل العرب المهمة في الجاهلية، وأشهر أيامها بعد

البسوس أيامها المتعددة مع تميم التي كانت تجاورها في شرق الجزيرة العربية بالإضافة إلى يوم «ذي قار» الذي كان أول يوم تنتصف فيه العرب من العجم في السنة الأولى للبعثة النبوية.

وبنو بكر ينقسمون إلى بيوت كثيرة منها: «بنو يشكر بن بكر، وبنو حنيفة وعجل ابني لجيم بن صعب بن علي بن بكر، وبنو شيبان الأكبر وهم بنو شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي (وهم أصحاب حرب البسوس)، وبنو شيبان الأصغر وهو بنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وبنو قيس بن ثعلبة»، وغيرهم.

وأشهر ذرية بكر بن وائل ممن لهم ذكر في «حرب البسوس»:

● جساس (قاتل كليب):

وهو أصغر عشرة أبناء لمرة بن ذهل بن شيبان، وأمه الهالة بنت منقذ بن سليمان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة التميمي أخت البسوس. (١٧)

ومن يتمعن في شخصية جساس لا يجد له ذكراً في أي من أيام تلك الحرب، فلم يقد من تلك الحروب شيئاً على عكس ما طرح في السيرة والمسلسل التلفزيوني لصغر سنه إذ أن القيادة كانت لأخويه همام والحارث، ويبدو أنه لم يشارك في معظم الأيام، ولذا كان مقتله على الأرجح في غارة جانبية جرها عليه أبو نويرة التغلبي أو بطعنة مفاجئة في أيام السلم من الهجرس بن كليب على القول الضعيف.

● مرة بن ذهل بن شيبان:

والد جساس وبقية أولاده العشرة: «همام، ونضلة، وسعد، ودب، وكسر، وبجير، وجندب، وسيار، والحارث»، ومعروف أنه كان حياً عند مقتل كليب إلا أن المراجع لا تذكر مصيره بعد ذلك إلا بعض المصادر غير الموثوقة التي تشير إلى مقتله في أحد المعارك على يد المهلهل، وهو ما تذكره السيرة الشعبية أيضاً.

● الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة:

معتزل الحرب في البداية، ومميل الكفة لصالح بني بكر في آخرها بعد مقتل ابنه (أو ابن أخيه) بجير.

● جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة:

وهو المبارز الأشهر يوم «تحلاق اللمم»، وقد صوّره المسلسل كشخصية مهانة قميئة لا قدر لها في القبيلة رغم أنه عم الحارث بن عباد نسباً وأحد أشهر فرسان بكر.

● عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان:

وهو المشارك في قتل كليب مع جساس، ويجب هنا التفريق بينه وبين عمرو المزدلف أحد فرسان بكر، وهو من أصدقاء جساس وندمائه أيضاً فذاك ابن أبي ربيعة بن ذهل أي أن الثلاثة (جساس وعمرو والمزدلف) أبناء عم لجد واحد.

● الشعثمان:

أخوان قُتلا في الحرب، وافتخر المهلهل في شعره بقتلهما، وهما ابني معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة البكري.

---

(١) إبن حزم، جمهرة أنساب العرب، صفحات متفرقة.

(٢) يطلق لقب «الغلبا» في البدو المعاصرين على قبيلتين هما «شمر، وسبيع»، ولا يبدو أن لهما علاقة نسب بتغلب، فشمر طائية وسبيع عامرية هوازنية.

(٣) الأعلم الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج٢، ص١٦٩.

(٤) علي أبو زيد ، شعراء تغلب في الجاهلية، ج١، ص٩٠.

(٥) أحمد الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، ص١٤٧.

(٦) المفضل الضبي ، أمثال العرب، ص١٢٩.

(٧) خير الدين الزركلي ، الأعلام، مواقع مختلفة من الموسوعة.

(٨) محمد المرزباني، معجم الشعراء، ص٧٢.

(٩) علي جواد الطاهر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (موقع الوراق في شبكة الإنترنت).

(١٠) محمد بن سلام، طبقات الشعراء، ص٣٨.

(١١) طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص٢١٦.

(١٢) محمد المزرباني، معجم الشعراء، ص٩.

(١٣) أم عمرو بن كلثوم هي ليلى بنت المهلهل على الأرجح، وإن كانت هناك أقوال ضعيفة تسميها «أسماء» و«لبنى»، وزعم الرواة في أكاذيبهم أن المهلهل لما ولدت زوجته هند بنت عتيبة ابنته «ليلى» قال لأمها: «أقتليها». ثم أتاه هاتف في منامه يقول له:

كم من فتى مؤملِ ×× وسيّدٍ شمردلِ

وعددٍ لا يُجهل ×× في بطن بنت مهلهلِ

فاستيقظ وقال: «أين بنيّتي؟»، فقالت أمها كاذبة: «قتلتُها»، فقال: «لا. واله ربيعة»، وكان أول من أقسم بهذا القسم، وترك قتل الطفلة الوليدة. راجع: أحمد الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، ص٤٠.

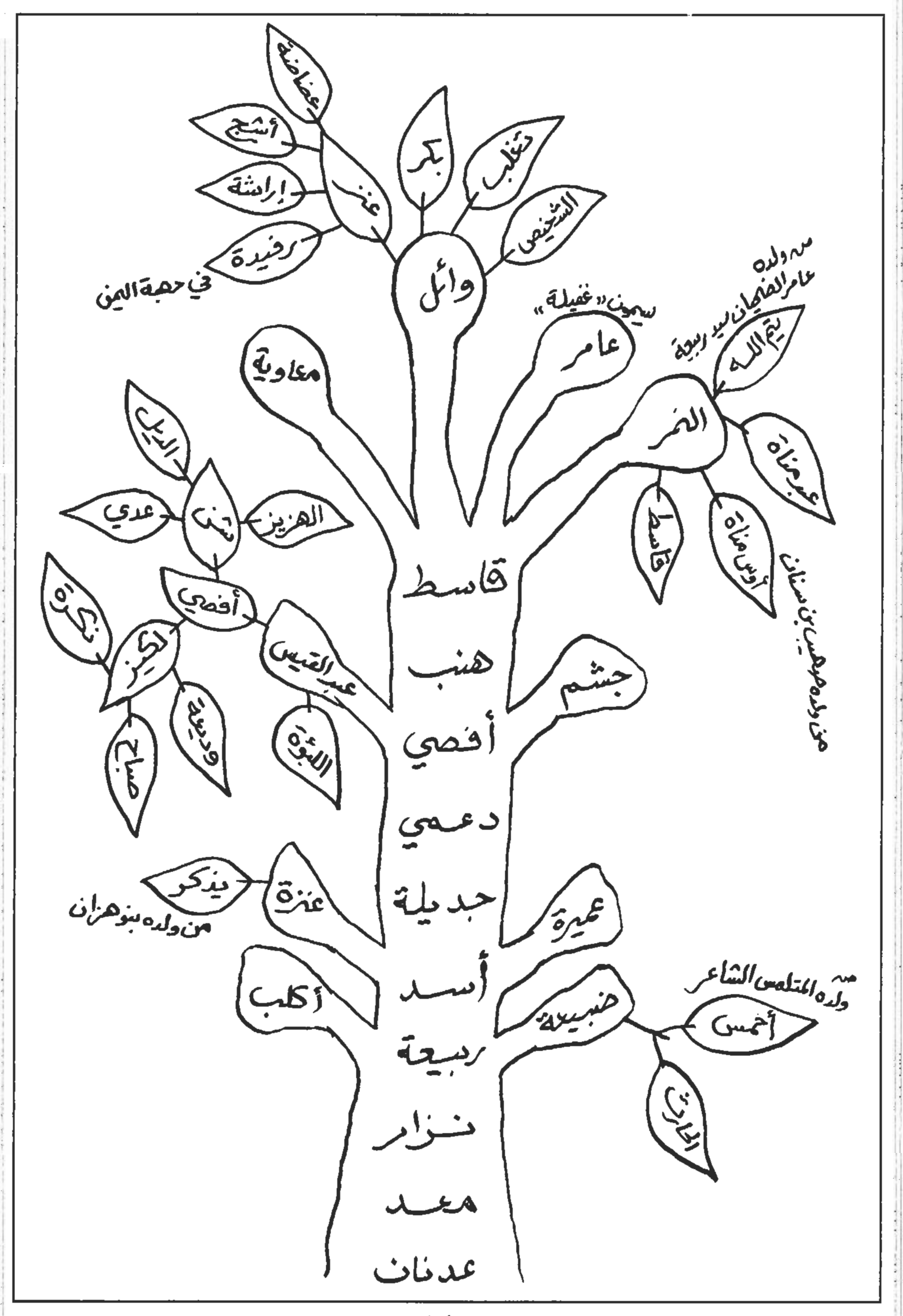
(١٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٤١.

(١٥) حمد الجاسر، معجم أسماء خيل العرب وفرسانها، ص٣٠٧.

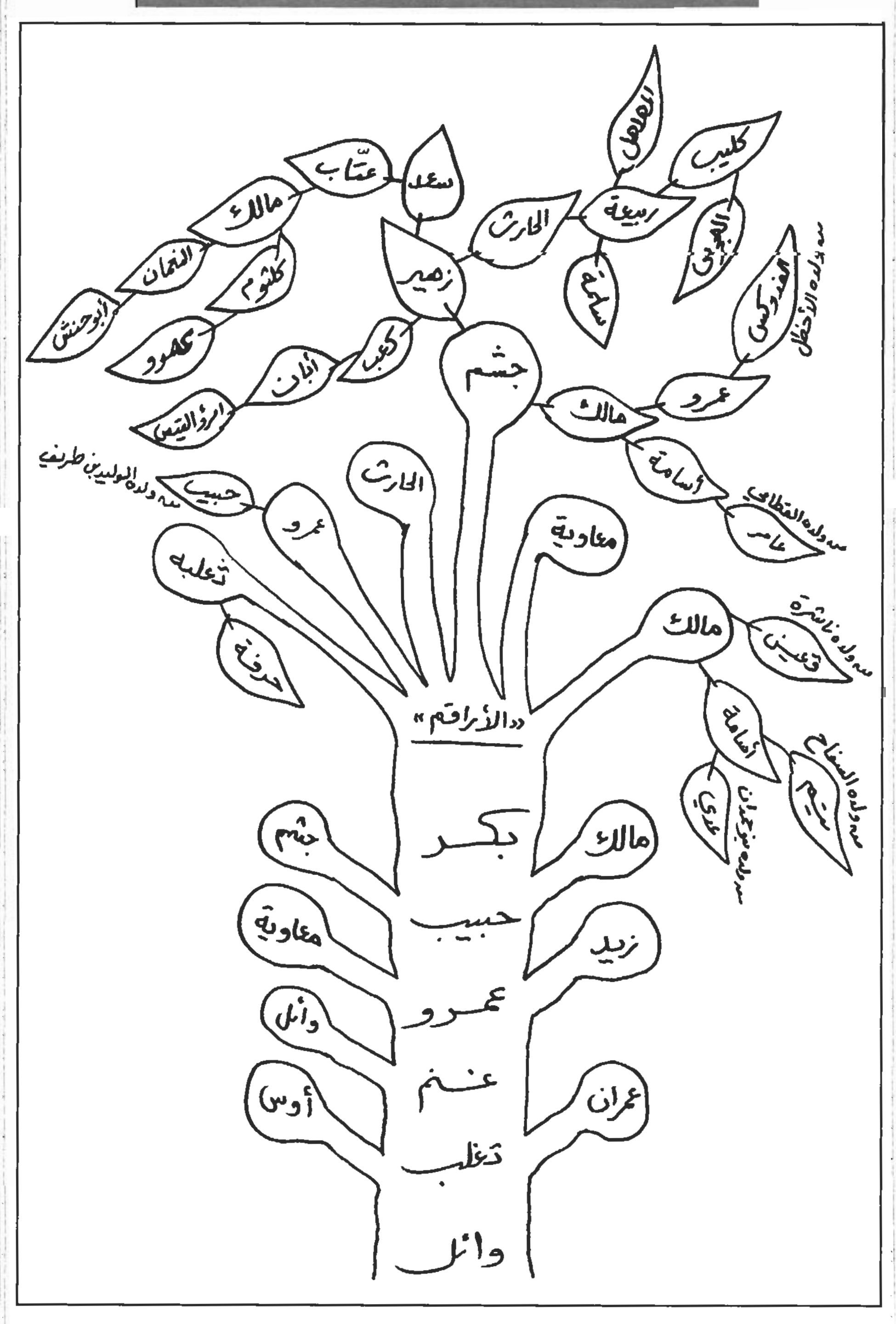
(١٦) علي أبو زيد ، شعراء تغلب في الجاهلية، ج١، ص٧٠.

(١٧) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٧.

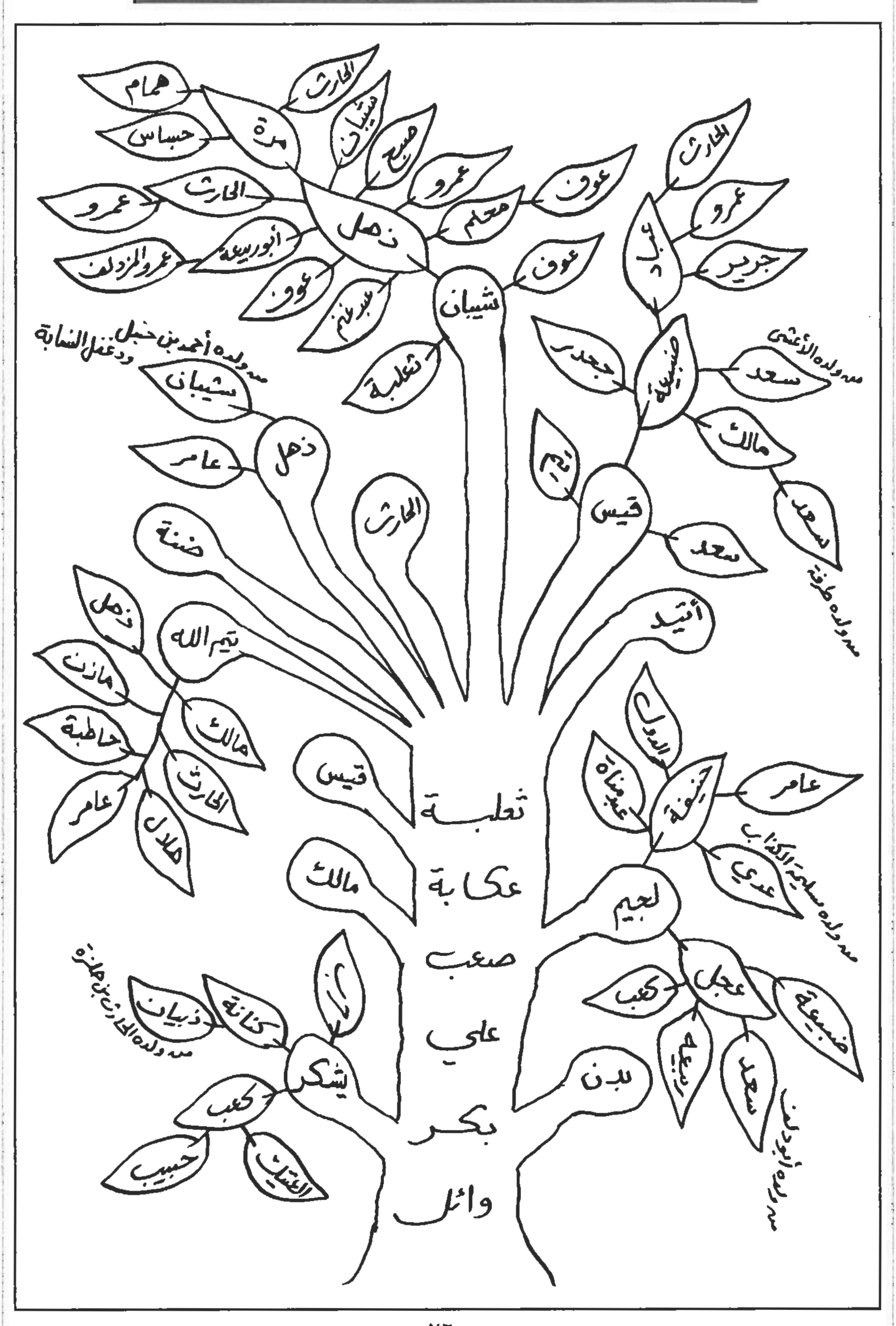
● أولاً: مختصر شجرة نسب (ربيعة) في العصر الجاهلي



• ثانياً: مختصر شجرة نسب (تغلب) في العصر الجاهلي



• ثالثاً: مختصر شجرة نسب (بكر) في العصر الجاهلي



(تاريخ تغلب وبكر في الجاهلية)

أكثر الإخباريون من مؤرخي صدر الإسلام من تعداد أمجاد ربيعة في الجاهلية، فنجد ثلاثة من شعراء المعلقات السبعة ينسبون إلى ربيعة وهم: (طرفة وعمرو والحارث) كما أن كثيراً من أيام العرب في الجاهلية تنسب لهم بالإضافة إلى بعض الأمجاد الإستثنائية كقتل الملوك وأسرهم وهزيمة الفرس، ولطه حسين رأي في ذلك إذ يقول:

«ألم تكن النبوة والخلافة ومظاهر الشرف كلها لمضر في الإسلام؟ وكيف يستطيع العرب من ربيعة أن يؤمنوا لمضر بهذه السيادة وهذا المجد دون أن يثبتوا لأنفسهم في قديم العهد - على أقل تقدير - مجداً وشرفاً وسيادة؟ وقد فعلوا: فزعموا أنهم كانوا سادة العرب من عدنان في الجاهلية: كان منهم الملوك والسادة، وكان منهم الذين ذادوا القحطانية عن ولد عدنان، وكان منهم الذين قاوموا طغيان اللخميين في العراق والغسانيين في الشام، وكان منهم الذين هزموا جيوش كسرى في يوم ذي قار. لمضر إذن حديث العرب بعد الإسلام، ولربيعة قديم العرب قبل الإسلام». (١)

ورغم أننا قد نتقبل قول طه حسين في أن بطولات ربيعة في الجاهلية ضُخمت كثيراً لأهداف سياسية واجتاعية إلا أن هذا لا يعني أنها كانت مزيفة أو منتحلة، فالشواهد على حدوثها كثيرة ولنستمع لعمرو بن كلثوم وهو يقول في معلقته:

وسيِّد معشرٍ قد توَّجوه
بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا الخيل عاكفةً عليه
مقلَّدةً أعنّتها صفونا (٢)

ويجد المستقرئ لأيام العرب في الجاهلية أن بكراً وتغلباً كانا حيين متباينين قائمين بذاتهما إلى حد ما في الجاهلية خاصة في أواخر ذلك العصر نظراً لتكاثر أعداد الحيين (١٥ جيلاً قبل الإسلام) وللأضغان المتوارثة

بسبب حرب البسوس، وبالتالي فلا يمكن التعامل مع تاريخهما على أنه وحدة واحدة رغم قربى الدم والديار والإشتراك في كثير من المعارك جنباً إلى جنب ضد أعداء خارجيين.

ومن أيام تغلب في الجاهلية يوم السلان ويوم الكلاب ويوم خزازى، وهي مدار الفخر في معظم أشعار التغلبيين في الجاهلية، ولعل أشهر تلك الأشعار معلقة عمرو بن كلثوم التي كانت بمثابة التاريخ المدوّن للتغلبين، فصاروا يحفظونها ويحفّظونها لأولادهم حتى قال الشاعر مستهزئاً:

ألهت بني تغلبٍ عن كلّ مكرمةٍ

قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

ومن أيام ربيعة الأخرى نجد يوم أوارة الأول ويوم ذي قار الذي كان أول يوم تنتصف فيه العرب من العجم، والفخر فيه للبكريين والشيبانيين منهم على وجه الخصوص، وهناك مجموعة من الأيام تصل إلى ثلاثة عشر يوماً بين تميم والبكريين. (٣)

ومن يقرأ أسماء المواقع التي وردت في أشعار البكريين والتغلبيين إبان حرب البسوس يرى أنهم كانوا يقيمون وقتئذ في منطقة «عالية نجد» (غربي الرياض باتجاه مكة)، ولكن الحرب واتصالهم بملوك الحيرة دعتهم للإنتقال باتجاهي الشرق والشمال. (٤)

ويبدو أن بكراً ظلت داخل حدود الجزيرة العربية خلال الجاهلية فأقامت في البحرين (شرقي الجزيرة العربية وصولاً إلى بادية الحيرة) بينما أوغلت تغلب في أواخر العصر الجاهلي شمالاً حتى وصلت إلى الجزيرة الفراتية بمشاركة بعض البطون من بكر وإياد إلا أن معظم الجزيرة كان لتغلب (٥)، وهي بذلك ظلت محتفظة بعلاقاتها الجيدة حيناً والمتنافرة مع أمراء الحيرة واكتسبت من جوارها الجغرافي بحواضر الشام وتركيا الديانة النصرانية التي اعتنقتها أقسام متعددة من تغلب حتى بعد الإسلام لعقود متوالية.

وعندما جاء الإسلام وأظهر الله (عز وجل) دينه على العالمين، وبدأت وفود القبائل تفد إلى المدينة لمبايعة الرسول ﷺ على الإسلام في السنة التاسعة

للهجرة نجد وفداً لعبدالقيس من ربيعة، ووفد بني حنيفة من بكر، والحارث بن حسان البكري، ووفد آخر بعد ذلك مثّل بكراً كلها أما تغلب فإنه قد وفد منهم ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى عليهم صلبان ذهب، فصالح النبي ﷺ النصارى على أن لا يصبغوا أولادهم في النصرانية وأجاز المسلمين منهم. (٦)

وعندما وصلت الفتوحات الإسلامية إلى ديار تغلب في أول خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبت بعض الأحياء النصرانية من تغلب وقبائل أخرى قليلة الإنصياع للحق والدخول في الإسلام كما أنها رفضت دفع الجزية، وقالت: «نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم، ولكن خذ منّا كما يأخذ بعضكم من بعض»، فرضيت تغلب بدفع ضعف ما يدفعه المسلمون من صدقة أنفة من كلمة «الجزية»، واقتدت بها قبائل نصرانية أخرى مثل تنوخ وبهراء. (٧)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل منهم ذلك شريطة ألا ينصّروا وليداً، ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام امتداداً لعهد النبي ﷺ معهم. (٨)

---

(١) طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص٢١٥.

(٢) أحمد الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، ص١٤٦.

(٣) لمزيد من التفصيلات عن هذه الأيام. راجع: أيام العرب في الجاهلية لمحمد جاد المولى وآخرين.

(٤) لمزيد من التفصيلات في هذا الموضوع. راجع: صفة جزيرة العرب للهمداني، وصحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار لمحمد بن بليهد.

(٥) علي أبوزيد ، شعراء تغلب في الجاهلية، ج١، ص٣٥.

(٦) إبن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص١٧٨

(٧) علي جواد الطاهر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (موقع الوراق في شبكة الإنترنت).

(٨) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج١، ص٦٥.

(دور تغلب وبكر في التاريخ الإسلامي، وبقاياهم حالياً)

يبدو أن بعض الأحياء المتنصرة من تغلب ظلت على نصرانيتها في القرن الإسلامي الأول، وهي التي برز منها «الأخطل الشاعر النصراني» بينما دخلت بكر بن وائل في الإسلام وشاركت في الفتوحات الإسلامية منذ وقت مبكر، وهذا لا يعني أن تغلباً كلها كانت على النصرانية بل أن منها مسلمون برزوا في القرن الإسلامي الأول مثل حنظلة بن قيس بن هوبر التغلبي قائد بني تغلب في خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والوليد بن طريف من زعماء الخوارج. (١)

ولكن تأخر تغلب بشكل عام عن الدخول في الدين ربما كان يرجع لبعدها الجغرافي عن دولة الإسلام في عصر النبوة بالإضافة إلى النظرة القاصرة من أن الإسلام جاء ليقضي على الأمجاد التي حققتها تغلب في الجاهلية ويجعلها تبعاً لمضر، ويبدو أن التغلبيين بفناء الجيل الأول (المخضرم) سرعان ما دخلوا الإسلام بعد ذلك كما يتضح من وجود الكثير من الأسماء التغلبية المسلمة في القرون التالية.

وقامت لبني تغلب دولة بني حمدان في حلب، واشتهر منهم إبنا العم سيف الدولة ممدوح المتنبي وأبو فراس الشاعر، وهم من ذرية حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنّى بن رافع بن الحارث بن غطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن عبيد بن عدي بن أسامة بن مالك بن بكر (أبو الأراقم الستة). (٢)

وفي القرن الخامس الهجري ظهرت أيضاً دولة العيونيين في الأحساء (٤٦٦ - ٦٣٦هـ)، وحكامها ينسبون إلى عبدالقيس من ربيعة، ونجد شاعرهم علي بن المقرب العيوني يفتخر بأعلام ربيعة جميعهم دون تمييز فيقول:

بيت الرئاسة لي وحكمة «دغفلٍ»

وبيان «سحبانٍ» وشعر «الأخطل» (٣)

وأعلام بكر بن وائل في الإسلام كثر ومنهم عدد من الصحابة كثمامة بن أثال الحنفي وبشير بن معبد الشيباني، ومنهم أيضاً المثنى بن حارثة الشيباني، وأبو دلف العجلي القائد السخي المشهور، ومعن بن زائدة الشيباني، ودغفل بن حنظلة النسابة، والإمام أحمد بن حنبل الشيباني، وآل خوط بن سعنة البكري وهم سبعة أخوة حملوا لواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الجمل فقتلوا كلهم، والحضين بن المنذر صاحب راية ربيعة كلها مع علي يوم صفين، وفيه قال الإمام علي:

لمن رايةٌ سوداء يخفق ظلّها

إذا قيل «قدّمها حضين» تقدّما (٤)

أما في عصرنا الحالي فإن أحياء وائل تجتمع أكثرها في قبيلة عنزة إحدى أكبر القبائل العربية في عصرنا الحالي، وهي تنقسم إلى جذمين كبيرين هما «بشر، ومسلم»، ويتفرعان إلى بطون وأفخاذ وعشائر كثيرة العدد منتشرة في دول الجزيرة العربية والهلال الخصيب، ومن هذه القبيلة ثلاث من الأسر الحاكمة في المنطقة، وأعني: «آل سعود في المملكة العربية السعودية، وآل صباح في دولة الكويت، وآل خليفة في دولة البحرين».

ويقول الباحث عبدالله بن عبار العنزي: «معروف أن قبيلة بشر من عنزة التي ينتسب إليها ابن صباح هي من سلالة تغلب بن وائل». (٥)

وفي ذلك يقول الشاعر الكويتي حمود البدر سنة ١٩٠١م مادحاً الشيخ مبارك الصباح:

صفوة صباح التغلبي ما يمارا

ولا ينتجارا، لا وعلاّم الاسرار (٦)

أما بكر بن وائل فمنهم جذم «مسلم» من عنزة، ونجد مسمى بني حنيفة القديم مازال موجوداً حتي يومنا هذا، وتنتمي إليه الكثير من الأسر المتحضرة في نجد، ومنهم آل سعود الكرام.

ويقول الشيخ طراد بن ملحم شيخ الحسنة من عنزة مفتخراً بمآثر وائل في الجاهلية:

حنّا بني وايل على روس الاشهاد
نسل ضنا عدنان من ساس وجدود
«تغالبة» سدنا القبايل ولا نساد
نظلم ولكن ما ظُلمنا ثقل عود
يشهد لنا الصابور بجنوب الاجياد
ورشّ القلايع عندما نجيبهن قود
«كليبٍ» لراس التبّعي صار جلّاد
وكلام ابن كلثوم بالكتب موجود
من دور وايل ما لنا قطّ صيّاد
منّا الخليفة والصباحي مع سعود (٧)

ومن تغلب حالياً جزء كبير من قبيلة الدواسر، وهم «المصارير، والعمور، والحقبان، والمشاوية، والخيلات» وغيرهم، وفي ذلك يقول الشاعر سحمي بن عجب المصروري الدوسري:

حنّا بني تغلبٍ من نسل وايل
من قديمٍ شبوب الحرب منّا
إن خذينا السلايل بالدبايل
نعجب اللي غطاريفه تثنّى (٨)

وفي العراق حالياً قبيلة كبيرة تحمل اسم «ربيعة» يبدو أنها بقية التغلبيين الذي ظلوا في العراق منذ العهد الجاهلي، وبيت الإمارة فيه يحمل لقب «التغالبة»، وشجرة نسبهم تتصل بعمرو بن كلثوم التغلبي شاعر المعلقة، وبين أميرهم الحالي وعمرو سبعة وثلاثين أباً، وهو عدد مقبول حسابياً بحساب الأجيال. (٩)

ولا شك بأن هناك الكثير من القبائل العربية والعشائر المختلفة في مشارق الأرض ومغاربها، والعديد من الأسر المتحضرة في كثير من بلاد العرب هي امتداد لبكر وتغلب بل أننا نتوقع أن هناك جزءاً من النسل البكري والتغلبي تحول لقوميات أخرى خاصة التركية إذا علمنا أن «ديار بكر» صارت جزءاً من تركيا منذ زمن طويل، وليست ديار تغلب بعد الفتوح الإسلامية ببعيدة عن

تركيا أيضاً.

---

(١) إبن حزم ، جمهرة أنساب العرب، ص٣٠٦.

(٢) إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٤٨.

(٣) علي الخضيري، علي بن المقرب العيوني حياته وشعره، ص٢٢١.

(٤) إبن حزم، أنساب العرب، ص٣١٧.

(٥) عبدالله بن عبار، أنساب قبائل عنزة، ص٥٧.

(٦) عبدالله الدويش، ديوان حمود الناصر البدر، ص٩٧.

(٨) عبدالله بن عبار، أنساب قبائل عنرة، ص٦٢.

(٢) عبدالله بن عبار، أنساب قبائل عنزة، ص٥٧.

(٩) ثامر العامري موسوعة العشائر العراقية، ج٣، ص١٣.

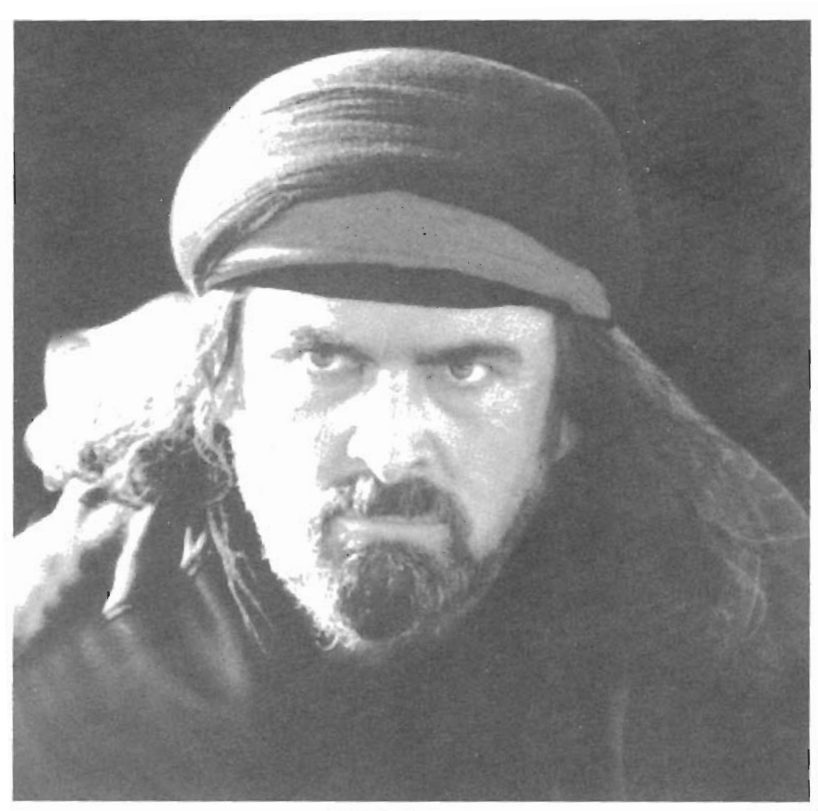


● لقطة من المسلسل وتظهر الممثلة التي قامت بدور الزهراء أخت كليب أثناء إذلال جساس للنساء التغلبيات).

الفصل الثاني:

حكاية الزير
كما رواها المؤرخون

● القسم الأول:
(كليب... زعيماً)



● لقطة أخرى تظهر الزير كمال بدا في المسلسل

(يوم السلان)

لاشك بأن ربيعة والأحياء التي تفرعت عنها أحدثت في جاهليتها أياماً وغزوات كثيرة، ولكن «يوم السلان» الذي يعود بنا إلي فتوة كليب وأخيه المهلهل في حياة أبيهما ربيعة بن الحارث هو أول الحوادث المهمة التي رويت لنا عن سيادة وائل في الجاهلية.

وسبب «السلان» أن ملك اليمن أبرهة بن الصباح (ولا يجب أخذ هذه الأسماء مأخذ الجد دائماً!!) حين وصل إلى نجد بقواته تلقاه زهير بن جناب الكلبي القضاعي، فأكرمه الملك وولاه على ابني وائل «تغلب وبكر»، فوليهم مدة من الزمن حتى أصابتهم سنة قحط شديدة، فامتنعوا عن دفع الأتاوة حين طالبهم بها، فأقامهم زهير في الجدب ومنعهم من الإرتحال إلى أماكن الخصب حتى يؤدوا له ما عليهم حتى كادت مواشيهم تهلك بسبب ذلك.

ولما ضاق بنو وائل ذرعاً بهذا التصرف قام أحد فتّاكهم ويدعى سلمة بن ذهل التيمي (الملقب بابن زيابة) بالدخول على زهير فوضع السيف في بطنه حتى أخرجه من ظهره لكنه لم يصب أحشائه بمقتل، وفرح سلمة بفعلته وخرج إلى قومه قائلاً: «قد والله قتلت زهيراً».

ولكن أعوان زهير وحاشيته حملوه جريحاً على نعش، ودفنوا النعش خالياً ليخفوا حقيقته عن بني وائل فلا يعودوا لقتله ثانية ثم أخذوه إلى أرض قومه، ولما علم ابن زيابة بفشل عمليته قال متحسراً على نجاة زهير:

طعنةً ما طعنتُ في غبش الليـ (م)
لِ زهيراً وقد توافى الخصومُ

حين تُنحَي له المواسم بكرٌ
أين بكرٌ؟ وأين منها الحلوم؟

خانني السيف إذ طعنتُ زهيراً
وهو سيفٌ مضلّلٌ مشؤومُ (١)

وجمع زهير قومه ومن أطاعه في اليمن وسار إلى بكر وتغلب وهم على ماء «الحبيّ»، فهزمهم وأسر كليباً ومهلهلاً إبني ربيعة كما أسر مجموعة من فرسانهم وسبى نساءهم، وقال في ذلك شعراً:

تبّاً لتغلب أن تُساق نساؤهم

سوق الإماء إلى المواسم عطّلا

لحقت أوائل خيلنا سرعانهم

حتى أسرن على الحبيّ مهلهلا

إنّا مهلهلَ لا تطيش رماحنا

أيام تنقف في يديك الحنظلا

ولّتْ حماتك هاربين من الوغى

وبقيتَ في حلق الحديد مكبّلا

فلئن قُهرت لقد أسرتك عنوةً

ولئن قُتلت لقد تكون مرمّلا

ثم أجمعت ربيعة أمرها بعد هذه الهزيمة بقيادة ربيعة بن الحارث (أبي كليب) وكرّت على زهير ثانية، ففكت أسراها بعد أن أوقعت بزهير ومن معه من كلب ومذحج عند «السلان» من أرض تهامة، واستقلت معد بعد «السلان» عن سطوة اليمنيين وصار لها استقلالها تحت سيادة ربيعة بن الحارث. ولكليب شعر في هذه الواقعة:

دعاني داعيا مضرٍ جميعاً

وأنفسهم تدانت لاختناقِ

فكانت دعوةً جمعت نزاراً

ولمّت شعثها بعد افتراقِ

أجبنا داعيي مضرٍ وسرنا

إلى الأملاك بالقبّ العتاقِ

فأردينا الملوك بكلّ عضبٍ

وطار هزيمهم حذر اللحاقِ

كأنهمُ النعام غداة خافوا

بذي السلاّن قارعة التلاقي

فكم ملكٍ أذقناه المنايا
وآخر قد جلبنا في الوثاق (٢)

ويبدو أن ربيعة بن الحارث أبا كليب لم يمتّع بالملك فعلاً إلا أثناء المعركة وقبلها إذ أنه قُتل في موقعة السلان نفسها، وانفرط أمر معد سنوات حتى عاد كليب فجمعه من جديد بعد يوم «خزازى». (٣)

---

(٢) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج١، ص٩٥.

(١) حسن السندوبي، أخبار المراقسة ، ص٢٣٦.

(٣) سلمان الصفواني ، تاريخ الحروب العربية، ص١٨.

(يوم الكلاب الأول)

وهو من أيام كليب الأولى التي ظهر فيها تميّزه في القيادة وطموحه نحو الزعامة والملك.

وسبب هذا اليوم أن الملك الغساني الملقب بابن عنق الحية بعث عاملاً له يدعى لبيد بن عنبسة ليتملك على تغلب، فصاهرهم أول الأمر وتزوج «الزهراء» أخت كليب على الرأي الأضعف بينما الراجح أنه تزوج امرأة من بني عمران بن تغلب يقال لها «عمرة». ثم أنه طغى على قومها الذين كرهوا ملكه ورفضوا دفع الأتاوة له، فقال لها (على قول من يرون أنها الزهراء): «ما بال أخيك كليب ينتصر لمضر، ويتهدد الملوك كأنه يعز بغيرهم؟»، فقالت: «ما عُرف أعز من كليب، وهو كفؤ لها»، فغضب لبيد من مقالتها هذه ولطمها لطمة أعشت عينيها.

أما من يرون أنها عمرة التغلبية فقالوا أنه لطمها، وقال لها: «كأنك ترين أنك حرة؟»، فقالت: «وما يمنعني وأبي عمران، وجدي عامر ملك الأزد، وأمي الوجيهة بنت عمرو بن عامر ملك الأزد؟!»، فقال لها: «تلك القرابة منعتك، ولولا ذلك لشددت شعرك إلى ذنب قلوص جرباء صعبة حتى تقطّعك!». (١)

وأياً كانت المرأة فإنها خرجت باكية إلى قومها، وهي تقول شعراً:

ماكنت أَحسبُ والحوادث جمّةٌ
أنّا عبيد الحيّ من قحطانِ

حتى أتتنى من لبيدٍ لطمةٌ
فعشتْ لها من وقعها العينانِ

إن ترض أسرة تغلب ابنة وائل
تلك الدنيّة أو بنو شيبان

لا يبرحوا الدهر الطويل أذلةً
هُدل الأَعنّة عند كلّ رهانِ (٢)

فلما سمع كليب ذلك ورأى أثر اللطمة على وجهها ثارت حميته وقال لها: «إنّي قاتله»، وخرج يدور في الحي طوال الليل حتى اقترب من ديار لبيد فسمعه يترنم بشعر يقول فيه:

يا بني تغلبٍ علام تقولو (م)
نَ كليبٌ يُهدي إليّ الوعيدا
نحن كنّا الملوك في عُصُر الدهـ (م)
رَ وكنتم - فيم الأناة؟ - عبيدا
إنّ في منعك الإتاوة حرباً
ونكالاً يشيّب الوليدا (٣)

فدخل كليب لما سمع هذا الشعر على لبيد فقتله. ثم خرج وهو يقول:

إن يكن قتْلنا الملوك خطاءً
أو صواباً فقد قتلنا لبيدا!!
وجعلنا مع الملوك ملوكاً
بجيادٍ جردٍ تفلّ الحديدا
نُسعر الحرب بالذى يحلف النا (م)
سُ به قومكم ونذكى الوقودا
أو تردّوا لنا الإتاوة والفيءَ
ولا نجعل الحروب وعيدا
إن تلمني عجائزٌ من نزارٍ
فأراني بما فعلتُ مجيدا (٤)

فلما سمع ابن عنق الحية بذلك استاء من هذا التعدي على عامله، فجمع لتغلب جمعاً كبيراً من قبائل اليمن وسار إليهم، فالتقوا بـ «الكلاب» واقتتلوا قتالاً شديداً ثم أن كليباً تمكن في المعركة من طعن ملك لخم عمرو بن نائل فقتله وانهزم القوم من بعده، وما جاء الليل حتى كان ابن عنق الحية ومن معه من اليمن قد انهزموا شر هزيمة.

ولما وصل ابن عنق الحية إلى قومه عاتبوه على انكساره، فقال لهم: «لا تلوموني، فلكم دية القتيل وفك الأسير، والله. لقد جئتكم من عند قوم رأيت

المنايا تلظّى في أطراف أسنتهم».

وفي هذه المعركة يقول المهلهل الذي يبدو أنه شهدها وأبلى بلاء الفرسان:

لو كان شيءٌ لابن لحية ناهياً
لنهته عنّا «وقعة السلاّنِ»
لمّا رأونا بالكلاب كأنّنا
يوم اللقا أُسدٌ على خفّانِ
نهض الكماة بكلّ أبيض صارمٍ
وبكلّ أسمر مارنٍ حرّان
يمشون في حلق الحديد كأنهم
جرب الجمال طلين بالقطران
فنجا بمهجته وأسلم قومه
متسربلين زواغف الأبدان (٥)

وقال أبو حنش التغلبي الذي قتل يوم الكلاب الملك شرحبيل بن الحارث ثأراً لولده الذي كان الملك قد قتله قبل ذلك:

قتلتُ شرحْبيل بن عمرو بن حارثٍ
هماماً عليه التاج وابن همامِ
فلا ترجونْ يا بن المرار نصيحتي
ولا ودّ قومٍ مغضبين رغامِ (٦)

---

(١) علي العدوي، الأنوار ومحاسن الأشعار، ص١٩٦.

(٢) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٤٢.

(٣) علي العدوي، الأنوار ومحاسن الأشعار، ١٩٨.

(٤) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٤٢.

(٥) علي العدوي، الأنوار ومحاسن الأشعار، ص٢٠٢.

(٦) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج٢، ص٢٥٥.

(يوم خزازى)

وهذا اليوم هو سبب تجمّع معد كلها تحت راية كليب وتمليكه عليهم، وفي أسبابه عدة روايات:

- تقول الأولى أنه بعد هزيمته في «السلاّن» عادت لزهير بن جناب الكلبي بعض قوته، فرجع لفرض الجزية على ربيعة حتى سار إليه كليب وهزمه في «خزازى»، فذهب زهير لقومه وكان قد أسن معتزلاً أمر معد. (١)

- أما الرواية الثانية وهي لابن الأثير في «الكامل» فتذكر أن ملكاً من ملوك اليمن كان بين يديه أسارى من مضر وربيعة وقضاعة، فأرسلت إليه معد وفداً لإطلاقهم، ولكن الملك أخذ بعض الوفد رهينة وقال للباقين: «أئتوني برؤساء قومكم لآخذ عليهم المواثيق بالطاعة لي، وإلا قتلت أصحابكم»، فرجعوا إلى قومهم وهم يظنون الغدر من جانب الملك، فجمع كليب ربيعة كلها كما اجتمعت عليه معد وسار بهم إلى تهامة، وجعل على مقدمتهم السفاح التغلبي (وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن تغلب) وأمرهم أن يوقدوا ناراً على «خزازى» ليهتدوا بها، وقال كليب للسفاح: «إن غشيك العدو فأوقد نارين».

فسارت مذحج لملاقاتهم بينما انضم أهل تهامة لربيعة، ووصلت مذحج إلى خزازى ليلاً فأوقد السفاح نارين، فلما رآها كليب أقبل على أعدائه فصبّحهم وهزمهم بعد قتال شديد. (٢)

- والرواية الثالثة يذكرها ياقوت الحموي في «معجم البدان» فيقول أن مضراً وربيعة اجتمعوا على أن يجعلوا ملكاً عليهم، واختلفوا في الملك المرشح حتى تراضوا على أن يكون من ربيعة ملك ومن مضر ملك، فملكت كل قبيلة ملكاً ثم اختلفوا بعد ذلك حتى وصل الأمر إلى القتال، فاتفقوا بعد ذلك على أن يتخذوا ملوكاً من بني آكل المرار من كندة، فملّكوا أبناء الحارث الكندي عليهم كالآتي:

١- شراحيل بن الحارث: على بني عامر.

٢- محرّق بن الحارث: على تميم وضبّة.

٣- شرحبيل بن الحارث: على وائل عدا بكر وتغلب.

٤- سلمة بن الحارث: على بكر وتغلب.

٥- معد يكرب بن الحارث: على بقية قيس.

٦- حجر بن الحارث (والد امرئ القيس شاعر المعلقة): على بني أسد وكنانة.

ثم أنهم عادوا فغدروا بملوكهم هؤلاء، فقتل كل فريق ملكهم عدا سلمة الذي تملّك على بكر وتغلب، وقُتل شرحبيل يوم الكلاب الأول كما سبق وأن ذكرنا، فسارت جموع اليمن للإنتقام من معد لما فعلوا، وانضم كليب بربيعة كلها للحرب التي وقعت في خزازى بالتفصيلات السابقة من إشعال نار وانتصار لمعد. (٣)

ويقول ابن الأثير: «كان يوم خزازى أعظم يوم التقته العرب في الجاهلية، فإن نزاراً لم تكن تنتصف من اليمن، ولم تزل اليمن قاهرة لها في كل شيء حتى كان يوم خزازى، فلم تزل نزار ممتنعة قاهرة لليمن في كل يوم التقوا به بعد خزازى حتى جاء الإسلام».

ومن أشعار كليب يوم خزازى قوله:

لقد عرفتْ قحطان صبري ونجدتي
غداة «خزازى» والحقوق دوانِ
غداة شفيت النفس من ذلّ حميرِ
وأورثتها ذلاً بصدق طعاني
دلفتُ إليهم بالصفائح والقنا
على كلّ ليثٍ من بني غطفانِ
ووائل قد جذّت مقاديم يعربِ
فصدّقها في صحوها الثقلانِ (٤)

وينسب إلى السفاح التغلبي قوله يفتخر بإشعاله النارين يوم خزازى:

وليلة بتُّ أُوقدُ في خزازى
هديتُ كتائباً متحيِّراتِ
ضللن من السهاد وكنّ لولا
سهاد القوم أحسبُ هادياتِ
فملنَ مع الصباح على جذامٍ
ولخمٍ بالسيوف مشهّراتِ (٥)

كما قال عمرو بن كلثوم في معلقته ذاكراً يوم خزازى بعد انقضائه بسنوات طويلة:

ونحن غداة أوقد في خزازى
رفدنا فوق رفد الرافدينا
بنا اهتدت القبائل من معدٍّ
بـ «نارينا» وكنّا الموقدينا (٦)

---

(١) حسن السندوبي، أخبار المراقسة ، ص٢٤٠.

(٢) إبن الأثير، الكامل في التاريخ ، م١، ص٥٢٠.

(٣) محمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية ، ص١٠٩.

(٤) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٤١.

(٥) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج٢، ص١٦٩.

(٦) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج٢، ص٧٢.

(كليبٌ.. ملكاً)

لم يكن مُلْك كليب وتجبّره على قومه شيئاً جديداً ابتدعه كليب عندما ساد قومه، فحوادث التاريخ العربي لمن سبقوه تذكر حالات مشابهة في بني ربيعة بن نزار.

فقد كان لواء ربيعة أول الأمر في عنزة بن أسد فكانوا يصفّرون لحاهم ويقصون شواربهم، فلا يفعل ذلك أحد من ربيعة إلا من يخالفهم ويريد حربهم. ثم تحول اللواء إلى عبدالقيس فكانت سنّتهم في الرئاسة أنهم إذا شُتموا لطموا من شتمهم، وإذا لُطموا قتلوا من لطمهم. ثم تحول اللواء للنمر بن قاسط وكان لهم سنة غير ذلك. ثم تحول إلى بكر فكانوا يوثقون فرخ طائر بقارعة الطريق، فإذا عُلم مكانه لم يسلك أحد هذا الطريق، ويسلك من يريد الذهاب والمجيء عن يمينه أو يساره. ثم تحول اللواء إلى تغلب في زمن كليب وأبيه من قبله. (١)

وقيل أن معد بن نزار لم تجتمع على زعامة أحد قبل الإسلام إلا على ثلاثة هم: «عامر بن الضرب العدواني، وربيعة بن الحارث أبو كليب، وكليب وائل»، والأخير جعلت له معد قسم الملك وتاجه وطاعته. (٢)

وكان كليب مؤهلاً للملك لشجاعته ومنعته كما عرفنا من الحوادث السابقة، ومن الحوادث التي يبدو أنها تعود إلى الفترة السابقة لتوليه الملك أنه وجد فرساً له عند رجل من مزينة في «سوق عكاظ» أثناء الأشهر الحرم، فأراد أخذها ولكن الرجل رفض ذلك، فقال كليب: «لا آخذه إلا عنوة في دار قومك»، فترك كليب الفرس ثم غزاهم بعد انتهاء الأشهر الحرم، فغنم منهم غنائم من بينها هذه الفرس، وفي ذلك يقول كليب:

شريتُ هلاكاً من «مزينة» عاجزاً
بطرف بطيءٍ في المضامير أجربِ
وعرّضتهم حيناً لنا جاهلاً بنا
فهذا أوانُ منجز الوعد فاهربِ

أطلّت عليهم بالحجاز كتائبٌ
مسوّمةً تدعو زهير بن تغلب (٣)

وعندما تولى الملك ابتدع كليب أموراً جعلها دلالة ملكه ورمزية سطوته فأمر ألا يمر أحد بين يديه إذا جلس، ولا تورد إبل أحد مع إبله، ولا توقد نار مع ناره.

بل تعدى ذلك إلى أن منع الصيد في أماكن معينة حتى قيل أنه مر يوماً بقبّرة، فلما رأته خفقت بجناحيها، فقال يخاطبها: «من ردعك؟.. أنت في ذمتي». ثم أنشد:

يا لك من قبّرةٍ بمعمرِ
لا ترهبي خوفاً ولا تستنكري
فأنتِ جاري من صروف الحذر
إلى بلوغ يومك المقدّر (٤)

وقال شاعر متأخر هو الأسود بن سنعة شعراً في ذلك:

كفعل كليبٍ كنتُ أُخبرتُ أنّه
يخطّط أكلاء المياه ويمنعُ
يُجير على أفناء بكر بن وائلِ
أرانب ضاحٍ والضباء فترتع

وذكر الأصفهاني في أغانيه أن كليباً عزّ وساد في «ربيعة» فبغى بغياً شديداً، فكان هو الذي ينزلهم منازلهم ويرحّلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره، وبلغ من عزّه وبغيه أن اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل منزلاً به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ الذي يُسمع فيه العواء إلا بإذنه، وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب، فضرب به المثل في العز فقيل: «أعز من كليب وائل!»، وكان يحمي الصيد ويقول: «صيد ناحية كذا وكذا في جواري»، فلا يصيد أحد منه شيئاً، وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبي أحد في مجلسه غيره. (٥)

وبلغ من عزة كليب أيضاً أنه لم يكن على الأرض بكري ولا تغلبي يستطيع

إجارة رجل ولا بعير إلا بإذنه، ولا يُحمى حمى إلا بأمره، وكان إذا حمى حمى لا يُقرب. (٦)

---

(١) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٣.

(٢) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٣.

(٣) محمد المزرباني، معجم الشعراء، ص٢٢٣.

(٤) المفضل الضبي، أمثال العرب، ص١٢٩.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٦.

ولطرفة بن العبد البكري الذي جاء بعد كليب بثلاثة أجيال أبيات تشبه هذه الأبيات.

والجدير بالذكر أنه في البدو المتأخرين كان لابن عريعر شيخ بني خالد مثل هذا الفعل إذ كان يحمي «بيض الحبارى» من الصيد، فلا يصاد لأنه في جواره، وقال الشاعر عبدالله بن عبدالرحمن العتيبي مادحاً بني خالد:

بني خالد لعدّينا القبايل
هل الوقفات بايّام صعيبة

حموا «بيض الحباري» واعتقوها
وقام السيل يدرج في شعيبه

راجع: خالد الخالدي، الموروث الخالد لبني خالد، ص١٧٩.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٧.

مقتل الناقة

تزوج كليب بن ربيعة من الجليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان البكري، ولاشك أن لزواجه هذا هدف سياسي في إبقاء التلاحم بين تغلب وبكر تحت سيادة كليب.

ولكن تصرفات كليب وأوامره وسيطرته الكاملة على الأمور ولّدت الحقد عليه من كثيرين كان من أبرزهم أخو زوجته جساس بن مرة الذي كان على ما يبدو شاباً متهوراً فيه من نزق الشباب وفتوتهم ما يمنعه من تقبل الأوامر الصارمة لكليب التي تكن في مجملها مقبولة لدى عرب ألفوا حرية الصحراء، ولم يعرفوا في حياتهم الإنصياع لملك أو سيد.

يبدو أن كليباً أحس بما يعتمل في صدور بعض معارضيه وخاصة أنسبائه من البكريين، فسأل زوجته الجليلة بينما كانت تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم: «من أعز وائل؟».. فصمتت ثم أعاد عليها حتى أكثر عليها ولعلها أرادت إغاضته فقالت: «أخواي جساس وهمام»، فنزع رأسه من يدها وخرج منها غاضباً. (١)

وزاد الطين بلة أن جساس بن مرة كان في تلك الفترة يستضيف خالته البسوس بنت منقذ التميمية التي كانت تملك ناقة وفصيل لها، فأرسلت البسوس ناقتها والفصيل للرعي مع إبل جساس في حمى كليب الذي كان مسموحاً لأنسبائه بإدخال إبلهم إليه، فلما رأي كليب فصيل الناقة رماه بسهم فأرداه، فسكت آل مرة على ذلك ولم يعاتبوا كليباً في الأمر، وعندما لقي كليب جساساً سأله: «ما فعل فصيل ناقتكم؟»، فقال جساس: «قتلته.. وأخليت لنا لبن أمه»، وسكت على ذلك.

ولكن كليباً لم يكتف بهذا الإستفزاز لأنسبائه، فلما رأى ناقة البسوس في حماه مرة ثانية سأل عنها فقيل له: «أنها لخالة جساس»، فقال: «أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليّ بغير أذني.. إرم ضرعها يا غلام!»، فأخذ

القوس ورمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها، وذهب الرعاة إلى جساس فأخبروه بالأمر، فقال: «إحلبوا لها مكيالي لبن بمحلبها، ولا تذكروا لها من هذا شيئاً»، وسكت آل مرة على ذلك أيضاً. (٢)

وقيل في رواية أخرى أن الناقة واسمها «سراب» كانت لسعد بن شميس بن طوق الجرمي الذي نزل بالبسوس بنت منقذ خالة جساس، وجعل ناقته ترعى مع إبل جساس، فلما رآها كليب أنكرها، فقال له جساس: «هذه ناقة جارنا الجرمي»، فقال كليب: «لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحمى»، فقال جساس: «لا ترعى إبلي مرعى إلا وهذه معها»، فقال: «لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها»، فقال جساس مهدداً: «لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبتك». (٣)

بعد حواره المستفز هذا مع جساس عاد كليب لامرأته الجليلة فقال لها: «أترين أن في العرب رجلاً مانعاً مني جاره؟».

فسكتت، فأعاد ثانية ثم ثالثة حتى قالت وهي لا تدري أية نار تشعل في قلب زوجها:

- نعم، أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان.

فذكر لها الحديث الذي جرى بينه وبين جساس آنفاً، وعندما أراد الخروج للحمى ناشدته ألا يقطع رحمه كما ذهبت الجليلة إلى أخيها جساس تنهاه أيضاً عن أن يسرح إبله في حمى كليب درءاً للمشكلات. (٤)

وكان مرة وأولاده قد عقلوا الناقة «سراب» حتى لا ترد الماء خوف الفتنة، فلما مرت بها إبل كليب «عركت العقال وتصرّعت فيه حتى حلّته»، وتبعت الناقة إبل كليب حتى اختلطت بها. (٥)

المهم أن محاولات الجليلة لم تنفع في منع المقدور إذ رمى كليب ضرع الناقة فقتلها، ولما سمعت البسوس صراخ جارها الجرمي صاحت: «واذلاّه»، فخرج إليها جساس قائلاً: «أسكتي ولا تراعي» كما قال للجرمي: «إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة.. سأقتل غلالاً»، وكان غلال فحل إبل كليب لم ير

في زمانه مثله، ويبدو أن جساساً كان يعني بمقالته هذه قتل كليب نفسه.

وكانت لكليب عيون بين رعيته تسمع ما يقولون وتخبره، فلم يهتم كليب لما علم بمقالة جساس وقال: «لقد اقتصر من يمينه على غلال». (٦)

وقيل أيضاً أنه مما دعا كليب لفعل ما فعل بالناقة أن زوجته الجليلة دخلت على أخيها جساس ولامته على ما قال لكليب، فقال لها: «تباً لك يا جليلة.. لقد جئتني عن ضيم في جاري. إن فعل ولم أقتله فأمي مثل أمه»، وكانت أم كليب أمَة جارية، فقالت له الجليلة: «إذاً يسلّمك قومك، ويخذلك أبوك. إني لأظنك شر مولود في وائل»، فقال لها جساس: «نعم. إن لم أمنع جاري، وإن منعته فخير مولود في وائل من منع من كليب».

فخرجت الجليلة غاضبة من عند أخيها، واضطرت لإخبار كليب بما قال جساس بعدما ألح عليها، فغضب لما سمع ما قاله جساس بشأن تعييره بأمه، وعزم على قتل الناقة عقاباً له. (٧)

وبعد أن سببت الجليلة مقتل الناقة بانفلات لسانها جاء دور امرأة أخرى في أشعال الحرب، فكانت البسوس تحرّض جساساً على قتل كليب، وتنشد مخاطبة جارها سعداً الجرمي صاحب الناقة:

أيا سعدُ لا تغرر بنفسك وارتحل
فإنّك في قومٍ عن الجار أمواتِ
ودونك أذوادي إليك فإنّني
محاذرةً أن يغدروا ببناتي
لعمري لو أصبحت في دار «منقذٍ»
لما ضيم سعدٌ وهو جارٌ لأبياتي
ولكنّني أصبحت في دار غربةٍ
متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي (٨)

وأتى المفضل الضبي بقول آخر عن علاقة البسوس بجساس، فذكر أنها ليست خالته بل أن أم جساس التميمية أمها من غنى، والبسوس غنوية فجاورته لهذه الخئولة البعيدة. (٩)

أما المهلهل أخو كليب فإنه لما بدأ الخلاف بين كليب وجساس في الظهور أراد أن يلطف من حدة كليب فحادثه في الأمر وطلب منه تهدئة الأمور، فغضب عليه الأخير وقال: «إنما أنت زير نساء.. والله لو قُتلتُ ما أخذتَ بدمي إلا اللبن»، فرد عليه المهلهل شعرا:

أخٌ وحريمٌ سيّءٌ إن قطعته
وسنّة عزمٍ هدمها لك هادمُ
وكلّ حميمٍ أو أخٍ ذي قرابةٍ
لك اليوم حتى آخر الدهر لائم
فأخّر، فإن الشرّ يحسن آخراً
وقدّم، فإنّ الحرّ للغيظ كاظم (١٠)

وجاء في كتب تفسير القرآن رواية عكرمة عن ابن عباس ﵁ حول أصل المثل القائل «أشأم من البسوس» ما يأتي:

(أن رجلاً من بني إسرائيل أُعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيها، وكانت له امرأة يقال لها البسوس، وكان له منها ولد وكانت له محبة، فقالت: إجعل لي منها واحدة. قال: لك واحدة فماذا تأمرين؟. قالت: أدع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت رجلاً آخر، فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة، فذهبت فيها دعوتان وجاء بنوها فقالوا: ليس لنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة يعيّرنا بها الناس، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث، وهي البسوس وبها يضرب المثل في الشؤم فيقال أشأم من البسوس).

ويذكر ابن عباس أن هذا تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف (آية ١٧٥): ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾. (١١)

وإذا صحت هذه الرواية عن ابن عباس ﵁ فلا ندري هل هناك بسوسان؟. أم أن خالة جساس لقبت بالبسوس تشبيهاً بتلك المرأة الإسرائيلية لشؤمها في إشعال الحرب بين العرب خاصة وأن هناك من يذكر أن اسم البسوس الحقيقي هو «الهيلة بنت منقذ» ولم يلحقها اسم البسوس إلا بعد

هذه الحادثة؟ (١٢)

---

(١) إبن الأثير، الكامل، م١، ص٥٢٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٧.

(٣) إبن الآثير، الكامل، م١، ص٥٢٤.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٧.

(٥) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٥٢.

(٦) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٥.

(٧) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٥٢.

(٨) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٤٥.

(٩) المفضل الضبي، أمثال العرب، ص١٣٠.

(١٠) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٤٩.

(١١) النيسابوري، أسباب النزول، ص١٧٠.

(١٢) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٤٩.

(الغدر بكليب)

بعد التوتر الذي أحدثه مقتل الناقة على يد كليب آثر «مرة» وأولاده أن يبتعدوا بعض الشيء عن ديار كليب ربما لدرء المشكلات التي يمكن أن يسببها جساس لهم بالإضافة إلى رغبتهم بالتعبير عن غضبهم من كليب لما فعل بناقة جارهم.

إرتحلوا أولاً إلى ماء «شبيث» ولكن كليباً غضب لارتحالهم عنه دون إذن فنفاهم عنه. ثم مروا على ماء «الأحص» فنفاهم عنه أيضاً وقال: «لا يذوقون منه قطرة»، وكذلك فعل بهم حين نزلوا «الجريب» حتى حلوا على ماء «الذنائب»، فلحقهم كليب وقومه هناك ومنع آل مرة عنه.

مر جساس بن مرة على كليب وهو واقف على ماء «الذنائب»، فقال له: «طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً!».

فقال له كليب: «ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون».

فمضى جساس ومعه ابن عمه عمرو بن الحارث حتى لحقا بكليب وهو منفرد عن حاشيته، فناداه جساس قائلاً: «هذا كفعلك بناقة خالتي؟» - يقصد منعهم عن الماء -، فقال له كليب: «أو قد ذكرتها؟.. أتراك مانعني أن أذب عن حماي.. أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل بها».

أغضبت هذه الكلمة جساساً وتذكّر ما فعل كليب بهم، ورأى أن الفرصة سانحة للتخلص من هذا الطاغية الذي بغى وتجبّر عليهم، فانحنى عليه بفرسه وطعنه بالرمح فأصابه في مقتل. (١)

عندها قال كليب وهو يتجرع الموت: «يا جساس.. إسقني من الماء»، فرد عليه: «ما عقلت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟!».

ثم التفت كليب إلى عمرو فقال له: «يا عمرو.. أغثني بشربة ماء»، فنزل إليه عمرو وأجهز عليه!!

وفي فعل عمرو بكليب حين استغاث به قال الشاعر:

المستجير بعمرٍو عند كربته

كالمستجير من الرمضاء بالنار (٢)

وقيل في وصف حادثة القتل أيضاً أن جساساً ظل يطلب غرة كليب، فلما رآه قد بعد عن البيوت أخذ رمحه وأدركه، فقال: «يا كليب.. الرمح وراءك!»، فقال له كليب: «إن كنت صادقاً فأقبل إليّ من أمامي» ولم يلتفت إليه، فطعنه جساس وأرداه عن فرسه، فقال كليب: «يا جساس.. أغثني بشربة ماء»، فقال له جساس: «تجاوزت الأحصّ وشبيث» وهما موردا ماء منع كليب آل مرة عنهما، ولم يأته جساس بالماء حتى قضى كليب نحبه، وعند ذاك أمر جساس ابن عمه عمرو بن الحارث فجعل حول جثة كليب أحجاراً لئلا تأكلها سباع البر. (٣)

وبعد فعلته هذه عاد جساس إلى ديار قومه مسرعاً على فرسه، وهو يكشف عن ركبتيه، فقال أبوه مرة حين رآه على هذه الحال: «والله ما خرجت ركبتاه إلا لأمر عظيم».

وسأله: «ما وراءك يا بني؟».

فقال جساس: «ورائي أني قد طعنت طعنة لتشغلنّ شيوخ وائل بها زمناً!!».

فسأله الأب مرة ثانية: «أقتلت كليباً؟».

قال: «نعم!!».

فقال مرة: «وددت أنك وأخوتك متّم قبل هذا.. ما بي إلا أن تتشاءم بي أبناء وائل». (٤)

وزاد الرواة الحكاية ملحاً فقالوا أنه قد دار بينهما هذا الحوار الشعري إذ قال جساس لأبيه:

تأهَّبْ مثل أُهبة ذي كفاح

فإن الأمر جلَّ عن التلاحي

وإنّي قد جلبتُ عليك حربا

تُغصّ الشيخ بالماء القراح

مــذكَــرةٌ مــتى مـا يُصح منهـا

فــتىً نشـبتْ بآخـر غـيـر صـاح

تُنكّل عن ذباب الغيّ قـومـاً

وتدعـو آخـرين إلى الصـلاح

تعـدّت تغلبٌ ظلمـاً علينا

بلا جـرمٍ يُعـدّ ولا جناحِ

سـوى كلبٍ عـوى في بطن قـاعٍ

ليـمنع حـمـيـة القـاع المبـاح

فرد عليه أبوه مرة قائلاً:

لئن تكُ قـد جنيت عليّ حـربـاً

تغصّ الشـيخ بالماء القـراح

جـمـعتَ بهـا يديك على كليبٍ

فـلا وانٍ ولا رثّ السـلاح

سـألبس ثوبهـا وأذود عنّي

بهـا عـار المذلة والفـضـاح

وأجـمل من حـيـاة الذلّ مـوتٌ

وبعض العـار لا يمحـوه مـاح

وفي الأغاني للأصفهاني قول أن هذه المحاورة الشعرية كانت بين جساس وأخيه نضلة بن مرة. (٥)

وفي رواية أخرى أن مرة قال لما رأي ابنه: «لقد أتاكم جساس بداهية.. ما رأيته قط بادي الركبتين إلى اليوم!»، فلما وقف عليه سأله: «مالك يا جساس؟»، فقال جساس: «طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً»، فقال مرة: «ومن طعنت لأهلك الثكل؟»، فقال: «قتلتُ كليباً»، فقال مرة: «بئس والله ما جئت به قومك». (٦)

وذكروا أيضاً أن مرة قال لجساس لما أعلمه بالخبر: «إذن.. نسلمك بجريرتك، ونريق دمك في صلاح العشيرة، والله لبئس ما فعلت.. فرّقت جماعتك، وأطلت حربها، وقتلت سيدها في شارف من الإبل، والله لا تجتمع

وائل بعدها، ولا يقوم لها عماد في الحرب». (٧)

وشُغل الشعراء بتصوير حادثة مقتل كليب، وأجمعوا على أنه قُتل مظلوماً بذنب يسير كما صوّر ذلك النابغة الجعدي الشاعر المخضرم إذ يقول متمثلاً بهذه الحادثة:

«كليبٌ» لعمري كان أكثر ناصراً
وأيسر جرماً منك ضُرّج بالدمِ
رمى ضرع نابٍ فاستمرَ بطعنةٍ
كحاشية البرد اليماني المسهَم
وما يشعر الرمح الأصمّ كعوبه
بثروة رهط الأبلج المتظلَم
وقال لجسّاسٍ: «أغثني بشربةٍ
تفضّل بها طولاً عليّ وأنعم»
فقال: «تجازت الأحصّ وماءه
وبطن شبيثٍ وهو ذو مترسّمِ» (٨)

وقال عمرو بن الأهتم أيضاً في وصف الحادثة:

وإنّ كليباً كان يظلم قومه
فأدركه مثل الذي تريانِ
فلمّا حشاه الرمح كفّ ابن عمّه
تذكّر ظلم الأهل أيّ أوانِ
وقال لجسّاسٍ: «أغثني بشربةٍ
وإلاّ فخبّر من رأيت مكاني»
قال: «تجاوزت الأحصّ وماءه
وبطن شبيثٍ وهو غير دفانِ» (٩)

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٨.

(٢) محمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، ص١٤٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٥.

(٤) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٦.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٩.

(٦) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٦.

(٧) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٤٦.

(٨) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٦.

(٩) إبن عبدربه، العقد الفريد ، ج٦، ص٧١.

• القسم الثاني:
(الزير.. ثائراً)



المهلهل في مواجهة الكارثة

كان همام بن مرة قد آخى مهلهلاً وتعاهدها ألا يكتمان بعضهما شيئاً، وبينما هما منفردان في البرية يشربان الخمر جاءت إلى همام جارية له معها فرس، فقال لها: «ما دهاك؟»، فقالت له سراً: «شرٌّ طويل.. قتل جساس كليباً، وقد ظعن أبوك وأخوتك وأُمرت بالمجيء إليك بالفرس لتحلق بهم». (١)

ولما سأله المهلهل عما قالت الجارية لم يخبره همام حتى ذكّره المهلهل بالعهد الذي بينهما، فقال همام: «أخبرتُ أن جساساً قتل كليباً».

فقال المهلهل مكذباً الخبر: «إست أخيك أضيق من ذلك» - وهو مثل يضرب للذلة والضعف - ومضى في شرابه دون أن يهتم للأمر.

وقيل أن جساساً كان قد مر بهما قبل ذلك، وهو على ظهر فرسه مخرجاً فخذيه بعد قتله لكليب مباشرة، فقال همام لما رآه: «إنه له لأمراً، والله ما رأيته كاشفاً فخذيه قط في ركض». (٢)

ثم عاد الصديقان إلى شرابهما حيث قال المهلهل لهمام: «إشرب.. فاليوم خمر وغداً أمر»، وقال في سكره:

دعيني فما اليوم مصحى لشاربٍ
ولا في غدٍ.. ما أقرب اليوم من غدِ!
دعيني فإني في سمادير سكرةٍ
بها جلَّ همّي واستبان تجلّدي
فإن يطلع الصبح المنير فإنّني
سأغدوا الهوينى غير وانٍ مفرّد
وأُصبح بكراً غارةً صيلميّةً
ينال لظاها كلّ شيخٍ وأمرد (٣)

فشرب همام وهو حذر خائف من صحوة المهلهل، وانتظر حتى سكر المهلهل

فعاد إلى أهله. (٤)

ولما ذهب همام بن مرة وجد قومه يرتحلون من مواقعهم إلى «النهي» وذلك ابتعاداً عن قوم كليب تحسباً لما قد يقع بعد انتشار خبر مقتله على يد جساس.

أما المهلهل فإنه رجع إلى الحي سكراناً، فرآى قومه يعقرون خيولهم ويكسرون رماحهم وسيوفهم، فقال لهم: «ويحكم.. ما الذي دهاكم؟»، فلما أخبروه بالأمر وعرف أن الأمر حقيقي وواقع قال: «لقد ذهبتم شر مذهب.. أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها؟، وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه؟» فتوقفوا عن ذلك كما نهى المهلهل النساء عن البكاء على كليب قائلاً: «إستبقين للبكاء عيوناً تبكي إلى آخر الأبد». (٥)

ورغم أن وجود «اليمامة ابنة كليب» التي كانت تحرض عمها المهلهل على الثأر هو من علامات السيرة الشعبية إلا أن بعض الكتب غير الموثوقة قديماً تحدثت عن ابنة لكليب تدعى «أمامة» قالت تحرض عمها لما رأته لاهياً عن ثأر أبيها في أبيات هي بلا شك من أكاذيب الرواة وانتحالاتهم:

أتلهو بالملاهي والخمورِ
ولا تدري بعاقبة الأمورِ؟
ولا تدري بأنَّ كليب أضحى
قتيلاً عند جساس الغدورِ
فوا عجباً لجسّاسٍ وعمروٍ
لقد جسرا على أمرٍ كبير
ويا ويلاً لجسّاسٍ وعمروٍ
لقد رميا أخاك بعنقفير
على ناب البسوس «سراب» أعني
يُبحْ دمه سدى كدم البعير
فبادرْ نحوه فلقد ترامت
إليك الآن شجعان النظير (٦)

ومازال المهلهل يبكي أخاه كليباً ويندبه ويريثه، ويتوعد بكراً شعراً ونثراً

حتى يئس قومه منه، وقالوا: «لقد صدق كليب.. ما هو إلا زير نساء»، وسخرت منه بكر، وهمّ مرة وبنوه بالرجوع إلى الحمى بعد أن أمنوا غضبة المهلهل.

فلما بلغ ذلك المهلهل انتبه للحرب، وشمر ذراعيه، وجمع أطراف قومه. ثم جز شعره، وقصر ثوبه، وأقسم ألا يهتم بلهو، ولا يشم طيباً، ولا يشرب خمراً أو يدّهن بدهن حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلاً من بكر. (٧)

ولما دُفن كليب وقف المهلهل على قبره يرثيه:

أهاج قذاء عيني الادكارُ
هدواً فالدموع لها انجرارُ
وصار الليل مشتملاً علينا
كأنّ الليل ليس له نهار
دعوتك يا كليب فلم تجبني
وكيف يجيبني البلدُ القفار؟!
أجبني يا كليب خلاك ذمٌّ
لقد فجعت بفارسِها نزار
سقاك الغيث إنّك كنت غيثاً
ويسراً حين يُلتمس اليسار
أبتْ عيناى بعدك أن تكفّا
كأنّ غضى القتاد لها شفار
وكنت أعدُّ قربى منك ربحاً
إذا ما عدّت الربح التجار

ومن أشعاره في توعد بكر:

يا لبكرٍ إنشروا لي كليباً
يا لبكرٍ أين أين الفرار؟
يا لبكرٍ إظعنوا ثم حلّوا
صرح الشرُّ وباح السرار
سفهتْ شيبان لما التقينا
إنّ عود التغلبيّ نضار

يا كليب الخير لست براضٍ
دون روحٍ تراح منه الديار

وقال أيضاً يرثي أخاه ويذكر حال قومه من بعده:

نُبِّئتُ أنّ النار بعدك أوقدت
واستبّ بعدك يا كليب المجلسُ
وتكلّموا في أمر كلّ عظيمةٍ
لو كنت شاهد أمرهم لم يُنبسوا
وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً
وذراع باكيةٍ عليها برنس
تبكي عليك ولست لائم حرّةٍ
تأسى عليك بعبرةٍ وتنفّس
أبني ربيعة من يقوم مقامه؟
أم من يردُّ على الضريك ويحبس؟ (٨)

---

(١) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٦٠.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٠.

(٣) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٥٠.

(٤) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٧.

(٥) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٥٣.

(٦) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج٢، ص٣٩٥.

(٧) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٥٠.

(٨) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، مواضع متعددة من الكتاب.

(ترحيل الجليلة)

إجتمعت نساء الحي لمأتم كليب فقلن لأخته: «رحّلي جليلة عن مأتمك، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب».

فقالت أخت كليب للجليلة أرملة كليب: «يا هذه.. أخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا».

فخرجت الجليلة واستقبلها أبوها مرة قائلاً: «ما وراءك يا جليلة؟»

فقالت: «ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد حليل، وقتل أخ عن قليل، وبين ذين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد».

فقال: «أو يكفّ ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟».

فقالت: «أمنية مخدوع ورب الكعبة.. أبالبدن تدع لك تغلب دم ربّها؟!».

ولما رحلت الجليلة قالت أخت كليب: «رحلة المعتدي، وفراق الشامت.. ويل غداً لآل مرة، من الكرة بعد الكرة».

فبلغ قولها الجليلة فقالت: «وكيف تشمت الحرة بهتك سترها، وترقب وترها؟.. أسعد الله جد أختي.. أفلا قالت: نفرة الحياء وخوف الإعتداء».

وأنشدت الجليلة ترد على أخت كليب:

يا ابنة الأقوام إن شئتِ فلا

تعجلي باللوم حتّى تسألي

فإذا أنت تبيّنت الذي

يوجب اللوم، فلومي واعذلي!

إن تكن أخت امرئٍ ليمتْ على

جزعٍ منها عليه فافعلي

جلَّ عندى فعل جسّاسٍ، فيا

حسرتى عمّا انجلى أو ينجلي

فعل جسّاسٍ على وجدي به

قاصمٌ ظهري ومدنٍ أجلي

لو بعينٍ فقئت عيني سوى

أختها فانفقأت لم أحفل

تحمل العين قذى العين كما

تحمل الأم أذى ما تفتلي

يا قتيلاً قوّض الدهر به

سقف بيتيَ جميعاً من علِ

هدم البيت الذي استحدثتُه

وانثنى في هدم بيتي الأولِ

ورماني قتله من كثبٍ

رمية المصمي به المستأصلِ

يا نسائي دونكنّ اليوم قد

خصّني الدهر برزءٍ معضلِ

مسّني قتل كليبٍ بلظى

من ورائي، ولظىً مُستقبلِ

ليس من يبكي ليومين، كمن

إنما يبكي ليومٍ ينجلي

يشتفي المدرك بالثأر، وفي

دركي ثأري ثكل المثكل (١)

وتختفي الجليلة بعد ذلك عن الأحداث فلا تظهر إلا عند حوارها مع ابنها الهجرس، والواضح أنها أقامت لدى أهلها البكريين، وشهدت النكبات التي جرها عليهم مقتل كليب حتى توفيت سنة ٥٣٨م على قول غير موثوق. (٢)

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٤٤.

و. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٢٧.

(٢) محمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، ص١٥٠.

(محاولة الصلح الأولى)

بعد قسم المهلهل بأخذ الثأر لأخيه قال له أكابر قومه: «إننا نرى ألا تعجل بالحرب حتى تعذر إلى أخواننا، فبالله ما تجدع بحرب قومك إلا أنفك، ولا تقطع إلا كفك!».

فقال المهلهل: «جدعه الله أنفاً، وقطعها كفاً، والله لا تحدّث نساء تغلب أني أكلت لكليب ثمناً، ولا أخذت له دية».

فقالوا: «لابد أن تغض طرفك، وتخفض جناحك لنا ولهم»، فكره المهلهل أن يخالفهم في ذلك فينفضوا عنه وهو مقدم على حرب يريدها طويلة وبلا نهاية، فقال: «دونكم ما أردتم». (١)

وذكر ابن الأثير في «الكامل» أن مهلهلاً هو الذي أرسل الوفد الذين ذهبوا إلى مرة فقالوا له: «إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة، وقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة، وإنا نعرض عليك خلالاً أربع لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع: إما أن تحيي لنا كليباً - أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به - أو هماماً فإنه كفؤ له - أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه».

فسكت مرة وقد حضرته وجوه بني بكر منتظراً تأييدهم فيما سيتخذ من قرار، فقالوا له: «تكلم غير مخذول»، وعند ذاك قال:

«أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه، وأما دفعي جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة، ولو دفعته إليكم لصيّح بنوه في وجهي وقالوا: دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره، وأما أنا فلا أتعجل الموت... وهل تزيد الخيل على أن تجول جولة فأكون أول قتيل، ولكن هل لكم في غير ذلك؟... هؤلاء بنيّ فدونكم أحدهم فاقتلوه به، وإن شئتم فلكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل». (٢)

فغضب الوفد من جوابه وقالوا: «إنا لم نأتك لترذل لنا بنيك - أي تختار لنا أرذلهم - ولا لتسومنا اللبن»، فتفرقوا إيذاناً بوقوع الحرب. (٣)

ولما عاد الوفد إلى المهلهل وأخبروه بعروض مرة قال: «ما كان كليب بجزور نأكل له ثمناً!!!». (٤)

----

(١) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٥٣.

(٢) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٠.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٠.

(٤) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٧٣.

(إعتزال بعض بني بكر الحرب)

ولما بدأت علامات الحرب في الظهور اعتزلت عشائر من بني بكر بن وائل الحرب، وكرهوا مساعدة بني شبيان فيها ومساندتهم على قتال أخوتهم من تغلب، فقد أعظموا قتل جساس كليباً من أجل ناقة من الإبل، فكفت عجل ولجيم ويشكر وذهل بن ثعلبة عن نصرتهم في حين دعت تغلب النمر بن قاسط فانضموا إليهم وصاروا يداً معهم على بكر، ولحق بهم بنو عقيل بن قاسط.

أما الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس البكري فكان أوضح البكريين اعتزالاً للحرب إذ ترك القتال ومنعه على أهله وحل وتر قوسه ونزع سنان رمحه (١)، ولخص موقفه قائلاً: « لا ناقة لي في هذا ولا جمل»، وأرسلها مثلاً. (٢)

وقال سعد بن مالك البكري (جد طرفة بن العبد) يحرض الحارث بن عباد على الحرب:

يا بؤس للحرب التي
وضعتْ أراهط فاستراحوا
والحرب لا يبقى لصا (م)
حبها التخيّل والمراح
إلا الفتى الصبّار في الـ (م)
نجدات والفرس الوقاح (٣)

ويقول سعد بن مالك أيضاً يعدد من امتنع عن نصرتهم من بني بكر:

إنّ لجيماً قد أبت كلها
أن يرفدونا رجلاً واحدا
ويشكراً أضحت على نأيها
لم تسمع الآن لها حامدا

ولا بنو ذهلٍ وقـــد أصـــبـــحـــوا
بهـــا حلولاً خلفـــاً مـــاجـــدا (٤)

وقيل أن شيبان لما جاؤوا لاستصراخ هؤلاء المعتزلين ردوا عليهم قائلين: «يا بني شيبان. ظلمتم قومكم، وقتلتم سيّدكم، وهدمتم عزّكم، ونزعتم ملككم، فلا نساعدكم أبداً».

وظلت هذه العشائر على عزلتها إلى أن قتل المهلهل بجير بن الحارث، فانضم بعضهم إلى بني شيبان وصارا يداً واحدة على تغلب، فقلبوا موازين الحرب كما سيأتي شرحه لاحقاً. (٥)

ولا يعني هذا أن الإعتزال كان تاماً وملزماً لكافة أبناء العشائر المذكورة آنفاً إذ شارك في الحرب منذ بدايتها أفراد من تلك الأطراف المعتزلة إلى جانب شيبان أخذتهم الحمية لما رأوا انكسار قومهم وحاجتهم إلى النصرة.

---

(١) محمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، ص١٥٤.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٠.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٤.

ويذكر هنا أن الحارث بن عباد التقى سعد بن مالك صاحب هذه الأبيات يوم «تحلاق اللمم» فقال له: «أتراني ممن وضعته الحرب؟»، فقال: «لا.. ولكن لا مخبأ لعطر بعد عروس!» - أي أنك انضممت للحرب حين لم يعد لديك خيار اخر -. راجع: محمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، ص١٦٣.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٨.

(٥) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٧٤.

(أيام الحرب)

كانت حرب البسوس التي استمرت أربعين عاماً على أكثر الأقوال ذيوعاً عبارة عن عدة أيام متفرقة لا تتجاوز أصابع اليدين، وهي تلك الأيام التي جرت فيها المزاحفات بين الجيشين، وبينها كانت هناك غارات متفرقة متفاوتة في الأهمية والتأثير، فكان الرجل فيها يلقى الرجل فيتقاتلان والرجلان الرجلين ونحو هذا، وأبرز ما ذكره المؤرخون من هذه الأيام على اختلاف في ترتيب أزمنة حدوثها ما يأتي:

● يوم عنيزة:

ولم يسفر فيه القتال عن تقدم أي من الطرفين. ثم أنهم تفرقوا بعده وبقوا زماناً دون قتال يذكر.

● يوم النهي:

وهو ماء سبق ذكره، وكان رئيس تغلب في هذا اليوم المهلهل، ورئيس شيبان هو الحارث بن مرة (أخو جساس)، ودارت فيه الدائرة لصالح بني تغلب إلا أنه لم يقتل فيه أحد من أولاد مرة.

● يوم الذنائب:

وهو من أعظم الوقعات التي جرت بين الفريقين في حرب البسوس، وفيه ظفرت بنو تغلب وقتلت بكراً مقتلة عظيمة حتى قتل من قادتهم كل من: شراحيل بن مرة بن همام بن ذهل بن شيبان (جد معن بن زائدة)، والحارث بن مرة (أخو جساس)، وعمرو بن سدوس بن شبيان. (١)

وزاد ابن عبد ربه في «العقد الفريد» على قتلى الذنائب من بكر كلاً من: جميل بن مالك بن تيم الله، وأخيه عبيدالله، وسعد بن ضبيعة بن قيس، وتميم بن قيس بن ثعلبة وكان شيخاً كبيراً فحُمل على هودج في القتال حتى لحقه عمرو بن مالك بن الفدوكس التغلبي (جد الأخطل الشاعر) فقتله.

● يوم واردات:

واقتتل فيه الفريقان قتالاً شديداً، والظفر فيه كان لتغلب حيث قتل من بني شيبان قائدهم همام بن مرة (أخو جساس)، فمر به صديقه المهلهل فقال: «والله ما قُتل بعد كليب أعز عليّ منك، وتا الله لا تجتمع بكر بعدكما على خير أبداً».

وقيل أن مقتل همام كان يوم القصيبات كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

ويوم وارادت قُتل أيضاً (الشعثمان) وهما «شعثم وعبدشمس» إبنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة البكري، وسيار بن الحارث بن سيار. (٢)

وشهد يوم واردات إلى جانب البكريين الفارس المشهور الفند الزماني وكان إذ ذاك شيخاً كبيراً وهو سهل بن شيبان بن زمّان بن مالك بن صعب بن بكر بن وائل، وفي ذلك اليوم يدّعي الفند أنهم انتصروا على تغلب حين يقول:

لقيتْ تغلبُ كعصبة عادِ
إذ أتاهم هول العذاب صباحا
قد تركنا نساءهم معولاتٍ
معلناتٍ مع البكاء نواحا (٣)

وهناك قول بأن مشاركة الفند كانت يوم «تحلاق اللمم» مما يعطي ادعاءه النصر مصداقية أكثر.

● يوم القصيبات:

وأصيب فيه بنو بكر إصابة شديدة حتى ظن العرب أنهم لن يقوموا من بعد سقطتهم في القصيبات أبداً.

وقيل أن همام بن مرة ظل قائد بكر في المعارك السابقة حتى قتل يوم القصيبات، وقتله غلام كان همام قد وجده مطروحاً فرباه وسماه «ناشرة»، فلما شب الغلام تبين له أنه تغلبي، فلما التقوا بوم القصيبات كان همام يقاتل فإذا عطش رجع إلى قربة ماء فشرب منها واضعاً سلاحه، فوجد ناشرة من همام غفلة فطعنه بالعنزة (رمح تشبه العكازة) ولحق بقومه تغلب، وفي ذلك تقول أم ناشرة عاتبة عليه لما فعل:

ألا ضيّع الأيتام طعنة ناشرة
أناشرُ لا زالت يمينك آشرة
قتلتَ رئيس القوم بعد رئيسهم
كليبٍ، ولم تشكر وإنّي لشاكرة (٤)

وكان ناشرة هذا قد ولد في سنة جدب شديدة، فسمع همام أمه تقول للنساء اللائي ولّدنها: «أقتلنه»، فسألها عن سبب ذلك فقالت: «أخاف عليه وعليّ الضيعة والعيلة»، فقال لها همام: «أما يكفيك لقحة حلوب وجمل ذلول؟»، فقالت: «بلى»، فأمر لها بذلك وربى الولد مع أبنائه. (٥)

ثم تمكن رجل من بني يشكر البكريين من قتل ناشرة بعد ذلك. (٦)

● يوم قضة (تحلاق اللمم):

وهو أول يوم تنتصر فيه بكر على تغلب، وذلك بعد مقتل بجير وانضمام الحارث بن عباد للحرب، وسنفصل فيه القول لاحقاً لأهميته.

● يوم عويرضات:

وحدث بعد «تحلاق اللمم»، واقتتلوا فيه حتى حجز الليل بينهم، وكانت الغلبة فيه لتغلب، وقد أبلى المهلهل في هذا اليوم بلاء جيداً (٧)، ويبدو أنه بعد هذا اليوم قرر إيقاف الحرب والرحيل إلى اليمن.

● يوم النقية:

ذكره ابن الأثير دون تفصيلات أكثر.

● يوم الفصيل:

وكان النصر فيه لبكر على تغلب دون تفصيلات أخرى.

وهناك أيام دون ذلك لم تكن فيها مزاحفة جيوش بل مجرد غارات قليلة التأثير (٨)، وزاد ابن عبدربه في «العقد الفريد» من أيام البسوس: «يوم الحنو، ويوم أنيق، ويوم ضريّة». (٩)

وذكر الحموي في «معجم البلدان» موقع «أسود العشاريات» فذكر أنه جبل في بلاد بكر بن وائل كانت به واقعة من وقائع حرب البسوس، وكانت الدائرة

فيه على بكر، فقُتل منهم سعد بن مالك بن ضبيعة البكري وجماعة من وجهاء البكريين، وسبق الذكر أن سعداً قُتل يوم الذنائب، والله أعلم بالصواب. (١٠)

أما قادة الحروب فكان المهلهل قائد تغلب فيها على الأعم أما بني بكر فقد تراتب قادتها بين همام والحارث ابني مرة ثم الحارث بن همام وغيرهم، وفي آخرها تولى الريان اليشكري قيادة بني بكر لما توسع نطاق المشاركين في الحرب خارج آل شيبان. (١١)

وكانت هذه الحروب متتابعة، والمهلهل لا يكتفي بنصر يحققه فيها أو قتيل من آل شيبان يقتله، ولا هدف له إلا قوله:

أكثرتُ قتل بنى بكر بربّهمُ
حتي بكيت وما يبكي لهم أحدُ
آليتُ بالله لا أرضى بقتلهمُ
حتى أبهرجُ بكراً أينما وجدوا (١٢)

---

(١) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٢.

(٢) إبن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦، ص٧٤.

(٣) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٥٧.

(٤) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج٢، ص٣٩٨.

(٥) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٧٦.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٣.

(٧) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج١، ص١٥٩.

(٨) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٧.

(٩) إبن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦، ص٧٥.

(١٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، (موقع الوراق في شبكة الإنترنت).

(١١) إبن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٣٠٩.

(١٢) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٧٠.

(مقتل جساس)

كان رأس جساس بن مرة موضوعاً على رأس قائمة المطلوب قتلهم من بني بكر بالنسبة للتغلبيين، فهو قاتل كليب ومشعل الحرب، ورغم أن الروايات لا تذكر شيئاً عن مشاركته في أيام حرب البسوس التي لم يقد أياً منها تاركاً ذلك لأخوته الكبار الحارث وهمام خاصة وأن أباه ادعى حين جاءه التغلبيون للتفاوض أنه هرب إلى جهة غير معلومة، ولعل جساس ظل هارباً فترة حتى أيقن أنه لن يسلم للقتل فعاد لقومه، ولعله شارك في بعض أيام الحرب حتى تمكن التغلبيون من قتله.

وفي مقتل جساس بن مرة روايتان. تقول الأولى أنه قتل في غارة قادها عليه أبو نويرة التغلبي، وذلك أن أبا نويرة التقى بجساس ذات ليلة خارج ساحات القتال كما يبدو من سياق القصة، فقال له أبو نويرة: «إختر إما الصراع بالأيدي أو الطعان بالرماح أو المسايفة (التبارز بالسيوف)»، فاختار جساس الصراع بالأيدي، وتصارعا صراعاً تكافأت فيه قواهما حتى جاء أصحاب كل واحد منهما إلى المكان فوجدوهما يتصارعان، ففرقوا بينهما.

وجعلت تغلب بعد هذه الحادثة تطلب جساساً أشد الطلب يريدون قتله، فقال له أبوه: «إلحق بأخوالك بالشام»، فامتنع ثم ألح عليه أبوه وسيّره سراً في خمسة رجال، فلما علم المهلهل بذلك أرسل أبا نويرة في سرية تتكون من ثلاثين رجلاً، فذهب أبو نويرة وهو يرتجز:

إنّ القتال واجبْ ×× بعد كليب الذاهبْ

أرى العدوّ هاربْ ×× والتغلبيُ غالب (١)

فأدرك أبو نويرة جساساً في الطريق، وتقاتل الفريقان حتى تمكن جساس من قتل أبي نويرة ومن معه عدا رجلين كما جُرح هو جرحاً شديداً مات منه وقُتل من معه عدا رجلين أيضاً.

فلما سمع مرة بمصرع جساس قال: «إنما يحزنني إن كان لم يقتل منهم

أحداً»، فقيل له: «إنه قتل بيده أبا نويرة رئيس القوم، وقتل معه خمسة عشر رجلاً ما شركه منا أحد في قتلهم وقتلنا نحن الباقين»، فقال مرة: «ذلك مما يسكّن قلبي على جساس». (٢)

• • •

أما الرواية الثانية فتقول أن قاتل جساس هو الهجرس بن كليب، وذلك بعد الصلح الذي أنهى الحرب، فكان جساس آخر قتلاها وبمصرعه أسدل الستار على مسلسل الثارات، ولذلك قصة مفادها الآتي:

أن الجليلة لما خرجت إلى أهلها بعد مقتل كليب كانت حبلى منه، فولدت عند أهلها غلاماً سمته «الهجرس»، وقد رباه جساس فكان لا يعرف أباً غيره وزوّجه ابنته، فوقع بين الهجرس وبين رجل من بكر كلام ذات يوم فقال له البكري: «ما أنت بمنته حتى نلحقك بأبيك»، فأمسك عنه الهجرس ودخل إلى أمه كئيباً فسألته وأخبرها بما حدث، فلما نام إلى جنب امرأته وضع أنفه بين ثدييها وتنفس نفساً تنفّط ما بين ثدييها من حرارته، فقامت فزعة إلى أبيها وأخبرته فقال جساس: «ثائر ورب الكعبة!!».

ولما أصبح الهجرس أرسل إليه خاله جساس، فأتاه وقال له: «إنما أنت ولدي، ومني بالمكان الذي قد علمت، وقد زوّجتك ابنتي وأنت معي، وقد كانت الحرب في أبيك زماناً طويلاً حتى كدنا نتفانى، وقد اصطلحنا وتحاجزنا، وقد رأيت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح، وأن تنطلق حتى نأخذ عليك مثل ما أخذ علينا وعلى قومنا».

فقال له الهجرس: «أنا فاعل، ولكن مثلي لا يأتي قومه إلا بلأمته - أي عدة سلاحه - وفرسه، فحمله جساس على فرسه وأعطاه لأمة ودرعاً، فلما اقتربوا من الدم الذي تُغمس فيه الأيدي للصلح أخذ الهجرس بوسط رمحه وقال: «وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه.. لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه»، ثم طعن جساساً فقتله ولحق بقومه تغلب. (٣)

وذكر أيضاً أن الهجرس لما عرف بحقيقة نسبه، وثأره الذي يطلبه عند الخال الذي رباه قال شعراً:

أصـــاب أبـي خـــالـي ومـــا أنا بـالـذي

أمـــيّل أمـــري بـين خـــالـي ووالـدي

وأوردتُ جـــسّـــاس بن مـــرّة غـــصّـــةً

إذا مـــا اعـتـــرتني حـــرّها غـــيـــر باردِ (٤)

---

(١) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج٢، ص٣٦٣

(٢) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٣.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٤٣.

و. إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٤.

(٤) محمد المرزباني، معجم الشعراء، ص٤١٦.

(مقتل بجير)

سارت الأمور لصالح المهلهل في حرب البسوس مادام يطالب بثأر أخيه المقتول ظلماً، ولكنها انقلبت ضده عندما ارتكب ظلماً فاحشاً بقتل «بجير» دون ذنب ارتكبه!!، ولعل هذا هو الدرس الأخلاقي الذي تريد الحكاية إيصاله لنا في النهاية سواء كان هذا ما حدث فعلاً أو ما تفتق عنه ذهن الرواة الذين أوصلوا الحكاية لنا في العصور الإسلامية.

و.. بجير هذا هو ابن الحارث بن عباد البكري الذي اعتزل الحرب كما أسلفنا القول، وهناك قول قوي تردد في الكثير من المراجع الموثوقة يفيد بأن بجيراً ليس ابن الحارث بل ابن ابن أخيه، فهو بجير بن عمرو بن مرة بن عباد أو ابن أخيه عمرو بن عباد، وللعلم فإن العرب كانت تسمي العم أباً، ولعل الخلط جاء من هنا.

وقد أُخذ بجير يوم واردات دون قتال على أحد الأقوال، وقيل أيضاً أنه سلّ (أي اختطف) ولم يؤخذ في مزاحفة حرب، فقال له المهلهل: «من خالك يا غلام؟» وقد نوى به الشر، فقال امرؤ القيس بن أبان التغلبي وكان حاضراً المجلس: «مهلاً يا مهلهل، فإن عم هذا وأهل بيته قد اعتزلوا حربنا، ولم يدخلوا في شيء مما نكره، والله لئن قتلته ليقتلن به رجل لا يسأل عن خاله!!».

فلم يستمع المهلهل لعذل امرئ القيس وطعن بجيراً وهو يقول، «بؤ بشسع نعل كليب»، فقال بجير قبل أن يسلم الروح: «إن رضيت بذلك بنو ضبيعة بن قيس (يعني قومه) رضيت»!!

فقال الحارث بن عباد لما سمع بمقتل بجير: «نعم الغلام.. غلام أصلح بين ابنيّ وائل، وباء بكليب»، فلما نُقل له ما قال المهلهل عند طعن بجير من أنه باء بشسع نعل كليب لا أكثر عظم عليه الأمر، ودخل في الحرب كما سيأتي لاحقاً». (١)

وقيل أن بجيراً خرج في إثر ابل له شردت، فعرض له المهلهل في كتيبة من الفرسان فسأله: «من خالك؟»، فقال: «أمي أخيذة» (أي سبية حرب). ثم كان ما كان. (٢)

أما الرواية الأشهر والأكثر منطقية، وهي التي اعتمدها المسلسل التلفزيوني فتقول أنه لما قُتل جساس أرسل أبوه مرة للمهلهل رسالة مفادها القول: «إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساساً، فأكفف عن الحرب ودع اللجاج والإسراف وأصلح ذات البين، فهو أصلح للحيين وأنكأ لعدوهم»، فلم يجبه المهلهل.

وعندها أرسل الحارث بن عباد ابنه بجيراً (أو ابن أخيه) إلى المهلهل متوسطاً في الصلح وكتب معه: «إني قد اعتزلت قومى لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم، وإنك قد أسرفت في القتل وأدركت ثأرك سوى ما قتلت من بكر، وقد أرسلت ابني إليك: فإما قتلته بأخيك وأصلحت بين الحيين، وإما أطلقته وأصلحت ذات البين، فقد مضى من الحيين في هذه الحروب من كان بقاؤه خيراً لنا ولكم». (٣)

هذا وقد وزعم الصفواني في كتابه الملئ بالغرائب أن أم بجير «أم الأغر» المذكورة في قصيدة الحارث هي ابنة ربيعة أخت المهلهل، ولذا سأله عن خاله ولم يكن رآه من قبل. (٤)

بعد هذه الفعلة من المهلهل دخل الحارث بن عباد الحرب بقومه، وجمع بكراً حوله وحول الحارث بن همام الذي تولى قيادة بكر بعد مقتل أبيه يوم القصيبات.

وبدأ الحارث حربه شعراً فدعا بفرسه «النعامة،» فجز ناصيتها ونتف شعر ذنبها، وصارت تلك سنة لمن بعده فيمن يطلب الثأر، وقال قصيدة طويلة منها:

كل شيءٍ مصيره للزوالِ
غير ربّي وصالح الأعمالِ
وترى الناس ينظرون جميعاً
ليس فيهم لذاك بعض احتيال

قــل لأم الأغـــــرِّ تـبـكـي بـجـــيــــراً
حـــيـل بـين الـرجـــال والأمـــوال
ولـعـــمـــرى لأبـكـيـنّ بـجـــيــــراً
مـــا أتـي المـاء مـن رؤوس الجـــبـــال
لـهـف نـفــسـي عـلـى بـجـيــرٍ إذا مــا
جـــالـت الخــيـل يـوم حــربٍ عــضـــال
يـا بـجـيــر الخـيــرات لا صلح حــتـى
نـمـلأ الـبـــيـــد مـن رؤوس الـرجــــال
لا بـجــيـــراً أغـنـى قـــتـيـــلاً ولا
رهـط كـلـيـبٍ تـزاجـــروا عـن ضــــلال
أصـــبـــحـت وائـلٌ تـعـجّ مـن الحــــربِ
عـــجـــيـج الجـــمـــال بـالأثـقـــال
لـم أكـن مـن جـنـاتـهــــا عـلـم الـلـه
وإنّـي بـحــــرّهـا الـيــــوم صـــــال
قـــد تجـنّـبـت وائـلاً كـي يـفـيـــقــوا
فـــأبـت تـغـلـبٌ عـلـيّ اعـــتـــزالـي
وأشـــابـوا ذؤابـتـي بـبـــجـــيـــرِ
قـــتـلـوه ظـلـمـــاً بـغـــيـــر قـــتـــال
قــــتـلـوه بـشـــسـع نـعـل كـلـيـبِ
إنّ قـــتـل الـكـريـم بـالـشــسـع غـــال
يـا بـنـي تـغـلـبٍ خـــذوا الحـــذر إنّـا
قـــد شـــربـنـا بـكـأس مـــوتٍ زلال
يـا بـنـي تـغـلـبٍ قـــتـلـتـم قـــتـيـــلاً
مـــا ســـمـعـنـا بـمـثـلـه فـي الخـــوالـي
قـــرّبـا مـــربـط الـنـعـــامـــة مـنّـي
لـقـــحـت حـــرب وائـلٍ عـن حـــيـــال
قـــرّبـا مـــربـط الـنـعـــامـــة مـنّـي
شـــاب رأسـي وأنـكـرتـنـي الـفـــوالـي

قـــربا مـــربط النعـــامـــة مني

لبـــجـــيـــرٍ فـــداه عـــمّي وخـــالي

قـــربـاها لحيّ تغلب شـــوســـاً

لاعـــتناق الكمـــاة يوم القـــتـــال (٥)

وقد رد عليه المهلهل بأن دعا حصانه «المشهّر»، وقال قصيدة طويلة على نفس منوالها منها:

هـل عـــرفت الغـــداة من أطلال

رهـن ريـحٍ وديمـةٍ مـــهـطـالِ

قـــد شـــفـــيت الغليل من آل بكرٍ

آل شـــيـــبـــان بين عمٍّ وخـــالِ

كـيف صـبـري وقـد قـتلتم كليـبـاً

وشـــقـــيـــتم بقـــتـله في الخـــوالي

صـــدق الجـــار إنّنا قـــد قـــتلنا

بقـــبـــال النعـــالِ رهط الرجـــال

لا تمـلّ القـــتـــال يا ابـن عـــبـــادِ

صـــبّـــرِ النفس إنّني غـــيـــر ســـال

يا خليليّ قـــربا اليـــوم منّي

كـل وردٍ وأدهـمٍ صـــهّـــالِ

قـــربا مـــربط المشـــهّـــر منّي

لكليـب الذي أشـــاب قـــذالي

قـــربا مـــربط المشـــهّـــر مني

واســـألاني ولا تطـيـــلا ســـؤالي

قـــد ملكناكم فكونوا عـــبـــيـــداً

مـــالكم عن مـــلاكنا من مـــجـــال

وخـــذوا حـــذركم وشـــدّوا وجـــدّوا

واصـــبـــروا للنزال بعـــد النزال (٦)

وقال المهلهل أيضاً بعد قتله لبجير واشتداد الحرب بينه وبين بكر:

أليلتنا بذي حُسُمٍ أنيري
إذا أنتِ انقضيت فلا تحوري

فإن يكُ بالذنائب طال ليلي
فقد أبكي من الليل القصير

وأنقذني بياض الصبح منها
لقد أُنقذتُ من شرٍّ كبير

فلو نبش المقابر عن كليبٍ
فيخبر بالذنائب أيّ زير

بيوم «الشعثمين» لقرّ عيناً
وكيف إياب من تحت القبور؟

وإني قد تركت بواردات
«بجيراً» في دمٍ مثل العبير

هتكت به بيوت بني عبادٍ
وبعض الغشم أشفى للصدور

و«همّام بن مرة» قد تركنا
عليه القشعمان من النسور

ينوء بصدره والرمح فيه
ويخلجه خدبٌ كالبعير

فلولا الريح أُسمع من بحجرٍ
صليل البيض تقرع بالذكور

على أن ليس عدلاً من كليبٍ
إذا طرد اليتيم عن الجزور

على أن ليس عدلاً من كليبٍ
إذا رجف العضاه من الدبور

على أن ليس عدلاً من كليبٍ
إذا ما ضيم جيران المجير (٧)

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٤.

(٢) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٣٠٤.

(٣) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٥.

(٤) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٨٧.

(٥) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص٩٠.

(٦) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٨٥.

(٧)حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٧٣.

(معركة تحلاق اللمم)

وضع الحارث بن عباد خطة محكمة للمعركة التي أزمع فيها الأخذ بثأر بجير، وحاول من خلالها الإستفادة من كافة إمكانات القبيلة البشرية من رجال ونساء إذ قال للحارث بن همام: «إن القوم مستقلون قومك، وذلك زادهم جرأة عليك، فقاتلهم بالنساء».

فسأله: «كيف قتال النساء؟».

فقال ابن عباد: «تحمل كل امرأة إداوة من ماء، واعطها هراوة واجعل جمعهن من ورائكم، فإن ذلك يزيدكم اجتهاداً، وعلّموا قومكم بعلامات يعرفنها، فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه».

فأطاعوه وحلقوا رؤوسهم علامة (١)، ولم يمتنع عن حلاقة لِمّته (شعر رأسه) إلا «حجدر» بن ضبيعة بن قيس البكري عم الحارث بن عباد، واسمه في الأصل «ربيعة» إلا أنه لقب بحجدر لقصر قامته.

قال لهم جحدر: «لا تحلقوا رأسي، فإني رجل قصير فلا تشينوني، ولكني أشتريه منكم بأول فارس يطلع عليكم من القوم»، فوافقوا على مقايضته، ودخل جحدر الحرب وهو يرتجز:

ردّوا علـيّ الخيـل إن ألَمّتِ
إن لـم أقاتلهم فجزّوا لِمّتي

وحين التقوا في «قضة» طلع ابن عناق التغلبي كأول مبارز من تغلب فشد عليه جحدر فقتله. ثم طلع أخوه فبارزه جحدر أيضاً وقتله كما قتل أبا مكنف التغلبي مبارزة ذلك اليوم أيضاً،»، وقال شاعر من بكر يمدح واحداً من ولده:

يا بن الذي لما حلقنا اللمما
ابتاع منّا رأسه تكرّماً

وقال شاعر بكري يفخر بجحدر:

ومنّا الذي فادى من القوم رأسه
بمستلئمٍ من جمعهم غير أعزلا

فأدى إلينا بزّه وسلاحه
ومنفصلاً من عنقه قد تزيّلا (٢)

وقاتل الحارث بن عباد في تلك الحرب قتالاً شديداً حتي تمكن من أسر مهلهل ولم يكن يعرفه وجهاً لوجه، فقال له: «دلّني على عدي (أي المهلهل) وأنا أخلّي عنك»، فقال له المهلهل: «عليك عهد الله بذلك إن دللتك عليه» فأجابه: «نعم. أنت آمن»، فقال المهلهل: «ومن لي بذلك؟» - أي من يكفل ذلك؟ -، فقال الحارث: «إختر من شئت»، فأشار المهلهل إلى عوف بن محلم الشيباني، فعرفه عوف وقال: «يا حارث. أقتل أسيرك»، فقال: «لا. ولكن أضمن له إن دلّني على عدي أنه آمن»، فراجعه عوف في ذلك ثلاثاً فأبى عليه، وعندها قال عوف: «فهاته إذن يكون ورائي». (٣)

فلما صار المهلهل وراء عوف بن محلم قال: «أنا عدي المهلهل»، فوفى الحارث بعهده وجزّ ناصية المهلهل وأطلقه ثم قال له: «كافئني بما صنعت لك بعد جرمك، ودلّني على كفء لبجير (أو قال: دلني على نظير لك)»، فقال المهلهل: «لا أعلمه إلا امرأ القيس بن أبان.. ذاك علمه!!» فذهب الحارث بن عباد نحو امرئ القيس بن أبان فقتله، وله في ذلك شعر منه:

لهف نفسي على عديٍّ ولم
أعرف عديّاً إذ أمكنتني اليدانِ

طُلّ من طلّ في الحروب ولم
أوتر بجيراً أباته ابن أبان

فارسٌ يضرب الكتيبة بالسيـ
ـفِ وتسمو أمامه العينان (٤)

وذكر هذا المشهد الشاعر الإسلامي أبو فراس الحمداني التغلبي في قصيدة طويلة منها:

وبنو عباد حين أحرج حارثٌ
جرّوا التحالق في بني شيبانِ
خلّوا عدياً وهو صاحب ثأرهم
كرماً ونالوا الثأر بابن أبانِ (٥)

وظهرت في هذا اليوم شجاعة فارس من بكر هو عمرو المزدلف بن أبي ربيعة الشيباني (إبن عم جساس) الذي قال لقومه عند انتهاء المبارزات وبدء الزحف: «يا بني بكر. إزدلفوا مقدار رميتي برمحي هذا». (٦)

ويحلل الباحث المعاصر حسن السندوبي انتصار البكريين يوم «تحلاق اللمم» تحليلاً منطقياً إذا يقول:

«ليس بعجيب أن تكون النصرة في آخر الأمر للحارث بن عباد وقومه، ومن انضم إليهم من الأحياء التي كانت معتزلة الحرب على بني تغلب. فقد كان هؤلاء جميعاً في بحوة عن الحرب طوال الزمن الذي شبت فيه نيرانها.

ولا شك أن الحارث وقومه كانوا - وهم في معتزلهم - يرقبون هذه الوقائع ويتتبعون أطوارها، فهم يعدّون العدة ويتخذون الأهبة لهذه الخاتمة إن ساعفتهم الظروف وواتهم الفرص، فلما سنحت لهم هذه الفرصة انتهزوها وباشروا الحرب وهم جامّون مستريحون. تاموا العَدد. مشحوذوا العُدد مع النشاط والإقبال في حين أن خصومهم المهلهل وبني تغلب وأشياعهم قد أخذت منهم هذه الحروب وطول الأمد في خوض غمراتها كل مأخذ، فأفنت عديدهم وذهبت بحدة عُددهم، وأفقدتهم نشاطهم، وأدخلت السأم والملال في نفوسهم، وناهيك بقوم لا يزالون في حروب وكروب دهراً طويلاً، فهم لا يخرجون من معركة إلا ليدخلوا في معركة». (٧)

.. المهم بانتصار البكريين في «تحلاق اللمم» انقلبت الحرب تماماً لصالحهم.

وهذا اليوم هو مدار فخرهم الأكبر في «البسوس»، وفيه يقول طرفة بن العبد البكري الذي جاء بعد ثلاثة أجيال من انتهاء الحرب بين الطرفين مفتخراً بهذا اليوم:

سـائـلـوا عـنّـا الـذي يـعـرفـنـا
بـقـوانـا يـوم «تـحـلاق الـلـمـم»
يوم تـبـدي الـبـيـض عـن أسـوقـهـا
وتـلـفّ الـخـيـل أعـراج الـنـعـم (٨)

---

(١) محمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، ص١٤٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٢. ولجحدر ذرية معروفة في الإسلام منهم «المسامعة» من ولد مسمع بن شهاب بن قلع بن عمرو بن عباد بن جحدر، وكان لهم في البصرة عددة وكثرة: راجع: إبن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٣٢٠.

ولاحظ الفرق بين شجاعة جحدر ونسبه وبين الصورة المزرية التي ظهر بها في المسلسل التلفزيوني!!

(٣) إبن خالويه، شرح ديوان أبي فراس الحمداني، ص١٦٥.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٦.

(٥) إبن خالويه، شرح ديوان أبي فراس الحمداني، ص١٦٥.

(٦) إبن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٣٢٣. وللعلم فإن عمرو المزدلف هو جد هانئ بن مسعود سيد بني شيبان يوم ذي قار.

(٧) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٦٤.

(٨) الأعلم الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج٢، ص٦٠.

(نهاية الحرب)

عاد المهلهل بن ربيعة مهزوماً من يوم «تحلاق اللمم»، فجاءته نساء تغلب والصبيان يسألون عن مصير الرجال من أزواج وآباء، فقال:

ليس مثلي يخبر الناس عن
آبائهم قتّلوا، وينسى القتالا
لم أرمْ عرصة الكتيبة حتى انـ (م)
تعل «الورد» من دماءٍ نعالا
عرفته رماح بكرٍ فما يأ (م)
خذن إلاّ لبانه والقذالا
غلبونا، ولا محالة يوماً
يقلب الدهر ذاك حالاً فحالا (١)

ورغم أن هناك احتمالاً أن المهلهل قاد بعد ذلك اليوم معركة ضد البكريين في «عويرضات» فأبلى فيها بلاء حسناً وقاتلهم حتى جاء الليل فأوقف الحرب بعد أن مالت الكفة لصالح تغلب إلا أن الواضح أن المهلهل أحس بعد هذه الأيام الطوال بانقلاب الكفة لصالح البكريين، ولعله شعر بالملل من هذا الثأر الذي لا ينتهي، فجمع قومه وقال لهم:

«قد رأيت أن تبقوا على قومكم فإنهم يحبون صلاحكم، وقد أتت على حربكم أربعون سنة، وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوتركم (!!)، فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها، فكيف وقد فني الحيّان، وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد، ونائحة لا تزال تصرخ في النواحي، ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن، وسيوف مشهورة ورماح مشرعة؟، وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم، وتتعطف الأرحام حتى تتواسوا في قبال النعل».

ثم قال المهلهل لهم بعد ذلك: «أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم، ولا

أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب، وأخاف أن أحملكم على الاستئصال، وأنا سائر إلى اليمن. (٢)

وبالفعل كان الأمر كما قال المهلهل إذ عاد الحيان إلى الصلح والوئام إلى حد ما، وكان الساعي في الصلح هو قيس بن شراحيل بن مرة بن همام البكري بوساطة أحد ملوك الحيرة الذي قيل أنه عمرو بن هند، وقيل أيضاً أنه المنذر بن ماء السماء، وتم الصلح بأن أخذ الملك من كل فريق مائة غلام كرهائن ليكف بعضهم عن قتال بعض، فكان هؤلاء يصحبونه في السلم والحرب. (٣)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إنهاء الحرب تم دون «تكافؤ في الدماء ولا عقل» بين الطرفين ولذا سمتها العرب بالبتراء (٤)، وهكذا انتهت الحرب بعد أن أكلت الطرفين وأفنت قواهم حتى قالت العرب: «أكلتْ بني وائل البسوسُ.. كما يأكل الحبَّ السوسُ». (٥)

وهذه النهاية البتراء كان من نتيجتها أن تظل للحرب ذيول استمرت في العصر الجاهلي كما نرى في معلقتي عمرو بن هند التغلبي والحارث بن حلزة البكري وشعر طرفة بن العبد الذي جاء بعد الحرب بثلاثة أجيال، وتجدد الحرب بين الطرفين أكثر من مرة بعد عقد الصلح بل «بقيت حزازات النفوس كما هي» إلى العصر الإسلامي، ونقرأ قول الأخطل التغلبي في العصر الأموي:

إذا ما قلتُ قد صالحتُ بكراً
أبى الأضغان والنسب البعيدُ
ومهراق الدماء بواردات
تبيد المحزنات ولا يبيد
وأيَّامٌ لنا ولهم طوالٌ
يعضُّ الهامَ فيهنَّ الحديد
هما أخوان يصطليان ناراً
وزاد الموت بينهما جديدُ (٦)

---

(١) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٩١.

(٢) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٧.

(٣) علي جواد الطاهر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (موقع الوراق في شبكة الإنترنت).

(٤) علي العدوي، الأنوار ومحاسن الأشعار ، ص٨٥.

(٥) الزمخشري، أساس البلاغة، ص٢٢.

(٦) إيليا حاوي، الأخطل، ص٢٥٢.

(قتلى حرب البسوس)

لم تكن معارك القبائل في الصحراء إلى وقت قريب فرصة لسفك الدماء عبثاً وجريانها أنهاراً كما تصورها الأفلام السينمائية وكما ظهر في المسلسل التلفزيوني عن «حرب البسوس»، فكانت المعارك التي يشار لها بالبنان تنجلي عن مقتل رجل أو رجلين أو أكثر من ذلك قليلاً، وأحياناً تنتهي المعركة دون قتلى خاصة في المعارك المقصود منها طلب الغنائم أما البسوس وهي حرب قامت في الأساس لطلب الثأر والتشفّي بالقتل فإنه من المعتقد أن عدد قتلاها لم يكن قليلاً عندما نأخذ بالإعتبار أيامها المتعددة وطول فترتها الزمنية، ولكن في المقابل علينا ألا نسرف في تخيل عدد القتلى كما فعلت السيرة الشعبية فجعلتهم بالآلاف في كل معركة!!

وقد بالغ بعض المؤرخين في التقليل من عدد قتلى حرب البسوس حتى قال أكثرهم مبالغة أنهم ثمانية رجال فقط من تغلب هم: «كليب، وعمرو، وعامر، وحيي، وربيع، وابني عناق، وامرؤ القيس بن أبان»، وأربعة رجال فقط من بكر هم: «همام، وبجير، وابني شقيقة» مقتصرين على من ذكرهم المهلهل في إحدى قصائده.

وقال آالأصفهاني في أغانيه أن القتلى من الطرفين لو عدّوا بحوالي الخمسمائة رجل لكان هذا العدد هو الأقرب للتصديق إذ أن التعداد السابق يغفل رجالاً ذكر أنهم قتلوا في الحرب مثل «أبي مكنف التغلبي» الذي قتله حجدر يوم «تحلاق اللمم»، وناشرة التغلبي الذي قتله اليشكري، و«حبيب» المقتول يوم واردات، و«سعد بن مالك البكري» وقتله ابن القبيحة يوم «تحلاق اللمم» (١)، وهناك جساس وأبو نويرة وأفراد سريته وشراحيل وغيرهم ممن أسلفنا ذكر مقتلهم.

وهناك نص شعري قيل على ما يبدو يوم ذي قار أي بعد حرب البسوس بقرابة القرن من الزمان، ويعدد فيه شاعر تغلبي يدعى «شهاب بن نويرة» قتلى

الفريقين، ولعله يذكر المشاهير منهم إذ يقول:

ألا يا عين فابكي لي «كليباً»
معاً و«مهلهلاً» و«ابن الوشاحِ»
و«منصوراً» و«ميموناً» و«بكراً»
و«فارس لاحق الفرس الوقاح»
و«حنظلةً» فابكيه و«عمراً»
ولا يُرثى لعمرو والصباح
نعم واستعبري لـ «بني ربيعِ»
فيا لك من دمٍ غير المباح
و«شعثم» قد تؤنّبني دماه
غداة سقوه من موتٍ ذباح
و«نمراً» و«النقيب» و«عبد قيسٍ»
و«ذا الزورين» غيل بذي بطاح
و«ذا الرمحين» قد قتلوا سفاهاً
بنو بكرٍ وأردوا بالرماح
و«آل منبّهٍ» لم يذخروهم
بواردةٍ وأخرى بالنباح
و«عبدالله» و«المخروم» أردوا
بأيدي معشرٍ سمٍّ قباح
فوارس تغلبٍ قُتلوا وإنّا
قتلنا منهمُ يوم الصباح:
قتلنا «جحدراً» و«أبا تميم»
و«مرواناً» و«كبش بني رباح»
و«ربداً» و«الحيان» و«عبد ودٍّ»
و«ذهلاً» و«العبيس» و«ذا القداح» (٢)

ونجده هنا عدّد تسعة عشر قتيلاً من بني تغلب وعشرة قتلى فقط من بكر، ونجده أكثر التلقيب في أسماء القتلى فلن نعرف من يعني في كثير من الأبيات كما أنه اختصر ولم يذكر الجميع، ولعله كان في معرض الإستشهاد وليس

الحصر.

أما سلمان الصفواني في كتابه «تاريخ الحروب العربية» قد حاول تعداد قتلى الحرب من الطرفين، فكان كما يأتي مع تعليقاتنا على بعض ما ذكره خاصة وأنه يجنح للغرائب والروايات الضعيفة في رواياته:

● القتلى من البكريين:

١- مرة: قتله المهلهل يوم واردات على قول ضعيف.

٢- همام بن مرة: قتله ناشرة بن أغواث يوم القصيبات.

٣- الحارث بن مرة: قتله ابن زهير يوم الذنائب.

٤- شراحيل بن مرة: قتله عتاب جد عمرو بن كلثوم يوم الذنائب.

٥- ربيعة بن ذهل المزدلف: قتله أمرؤ القيس بن أبان التغلبي.

٦- الحارث بن همام: قتله عمرو بن زهير.

٧- جساس بن مرة: قتله الهجرس على أحد الأقوال.

٨- عمرو بن الحارث (صاحب جساس يوم قتل كليب): قتله المهلهل.

٩- عمرو بن سدوس البكري: عثرت به فرسه فأدركه فارس من تغلب فقتله.

١٠ و ١١- الشعثمان ابني معاوية بن ذهل البكريان: قُتلا يوم واردات

١٢- بجير بن الحارث: قتله المهلهل في الحادثة المشهورة.

١٣- سعد بن ضبيعة: قُتل يوم الذنائب.

١٤- ثعلبة بن عوف بن أبي سعد.

١٥- سنان بن أبي الحارث بن سنان.

١٦- عمرو بن عباد.

١٧- صليع بن عبد غنم بن ذهل.

١٨- جميل بن مالك بن تيم الله.

١٩- حنبل (أو صنبل) بن مالك بن تيم الله.

٢٠- عبيدالله بن مالك بن تيم الله: قُتل يوم الذنائب.

٢١- حنبل بن عتب.

■ ■ ■

● القتلى من التغلبيين:

١- كليب بن ربيعة: قتله جساس وبسبب ذلك قامت الحرب.

٢- الهجرس: رجح الصفواني مقتله بعد قيام الحرب مرة ثانية، وهو قول ضعيف لا يستند عليه.

٣- المهلهل بن ربيعة: قتله عبداه على الرواية الأضعف أو مات عطشاً أسيراً لدى البكريين.

٤- كعب بن زهير: قتله الحارث بن عباد.

٥ و٦- عمرو وحجل ابنا مالك بن الحارث.

٧- أبو نويرة: قتله جساس قبل مقتله.

٨- حبيّ بن الحارث: ذكر المهلهل مقتله في إحدى قصائده.

٩- ناشرة بن أغوات: قاتل همام بن مرة، وقد قتله عباد بن جهم اليشكري.

١٠- أبو أنيس: أحد أفراد سرية أبي نويرة التي قامت بقتل جساس بعد قتله بعض أفرادها ومنهم أبا أنيس. (٣)

....

وبمطالعة التعداد السابق نجد أنه يعرفنا على بضعة وثلاثين قتيلاً مشكوك في بعضهم، فهل يعقل ذلك؟

.. بالنسبة لي أعتقد أن القتلى أكثر من ذلك، ولكن الرواة أوصلوا لنا أخبار المشاهير منهم أو من كان لقتله خبر أو ورد ذكره في الشعر، ولاشك أنه قد ذهب في الحرب أناس مغمورون كثر نسيت كتب التاريخ أو تناست ذكرهم.

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٨.

(٢) علي أبو زيد، شعراء تغلب في الجاهلية، ج٢، ص٣٠٣.

(٣) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص١٦٤.

(رحيل المهلهل إلى اليمن وعودته)

خرج المهلهل بعد أن دعا قومه إلى الصلح مصطحباً بعض أهله فلحق بأرض اليمن، وجاور جنباً وهم حي من مذحج القطانية أعداؤه القدامى أيام السلان وخزازى، وللعلم فإن مصطلح اليمن لدى أهل البادية منذ القديم وخاصة أهل نجد تعني جهة الجنوب مثلما تعني الشام جهة الشمال، فلا يظنن القارئ أن جساساً عندما توجه لأخواله من تميم في الشام أنهم كانوا في دمشق ضواحيها بل المقصود أنهم كانوا شمالي نجد، وكذلك توجه المهلهل هنا إلى اليمن فالواضح أنه لم يتعد تهامة الواقعة جنوب غربي نجد.

وعندما استقر المهلهل وأهله مجاوراً لجنب خطب إليه أحدهم ابنته، فأبى المهلهل تزويجها له قائلاً: «إني طريد بينكم، فمتى أجبتكم قالوا أنهم اقتسروه». (١)

ولكنهم أكرهوه على ذلك حتى زوّجها مرغماً، وساقوا إليه مهرها عبارة عن جلود (أدم)، فقال المهلهل متحسراً على مصاهرته لهم شعراً:

هان على تغلبٍ بما لقيتْ
أخت بني الأكرمين من جشمِ
أنكحها فقدها «الأراقم» في
«جنبٍ»، وكان الحباء من أدمِ
لو بأبانين جاء يخطبها
ضُرّج ما أنف خاطبٍ بدم
أصبحتُ لا منفساً أصبتُ، ولا
أبتُ كريماً حراً من الندم
ليسوا بأكفّائنا الكرام لا
يغنون من عيلةٍ ولا عدم (٢)

فلما بلغ قبائل بكر وتغلب ذلك ساروا إلى مذحج، فأخذوا المرأة وأرجعوها

إلى أبيها بعدما أسروا زوجها. (٣)

هذا ما تذكره الكتب حول الضعف الذي أصاب المهلهل بعد قوته ومنعته حتى اضطر إلى تزويج ابنته رغماً عنه، وتفيد الروايات أن الفتاة اسمها «سلمى» وهي ابنة المهلهل أو أخته على بعض الأقوال!

إلا أن هناك رأياً آخر تذكره بعض كتب الأنساب المتأخرة، وملخصه أن الفتاة هي ابنة المهلهل واسمها «عبيدة» ولها ذرية كثيرة منهم «الضياغم» المشهورون الذي ذكرهم ابن رسول في «طرفة الأصحاب» في القرن الثامن الهجري وقال أنهم من ذرية «عبيدة» من جدهم روح بن مدرك الذي خلف عليها بعد زوجها الأول «معاوية بن عمرو بن معاوية بن الحارث الجنبي»، ونسل «عبيدة» من كلا الزوجين صاروا أجداداً لبطن كبير من قحطان المعاصرة يسمى «عبيدة» كما أنه يطلق إلى يومنا هذا إسم «سراة عبيدة» على جزء كبير من جبال السراة نسبة إلى هذه القبيلة. (٤)

وسواء تم تطليق ابنة المهلهل من زوجها عنوة أو أن أقامتها في اليمن استمرت حتى ولدت أجداد «عبيدة»، فإن المهلهل اشتاق إلى أهله كما ألحت عليه ابنته سلمى بالمسير إلى ديارهما فرجع، ولما صار قرب قبر أخيه كليب وكانت عليه قبة نفر البغل هارباً، فوثب المهلهل عن البغل وضرب عرقوبيه بالسيف، وقال شعراً يتوعد بكراً:

رماك الله من بغلِ
بمشحوذٍ من النبلِ

أما تبلّغني أهلكَ
أو تبلّغني أهلي

ألا أبلغ بني بكرِ
رجالاً من بني ذهلِ

بدأتم قومكم بالغد (م)
رِ والعدوان والقتلِ (٥)

ورغم أننا نتوقع أن المهلهل بعد كل هذه الأحداث كان قد اقترب من سن الشيخوخة إلا أنه بهذه الأبيات التي قالها أعلن استئناف الحرب ثانية، ولنا أن

نتوقع أن دعوته هذه لم تحز القبول من تغلب التي صار لها سادتها الآخرون في غيابه، ولكن في المقابل لنا أن نعرف أن شن الغارات الخاطفة في البادية لا يستلزم عادة عدداً كبيراً من الرجال، ولعل هذا التكتيك هو ما كان ينوي المهلهل في تبنيه إعادة الحرب مرة ثانية.

صار المهلهل بعد عودته إلى ديار تغلب لا يهم بالصلح الذي دخل فيه الناس، ولا يشرب خمراً، ولا يلهو، ولا يغتسل بماء حتى كان يتأذى جليسه من رائحته، فدخل عليه ذات مرة رجل من تغلب اسمه «ربيعة بن الطفيل» فأقسم عليه: «لتغسلن بالماء البارد، ولتبلنّ ذوائبك بالطيب»، فقال المهلهل: «هيهات هيهات يا بن الطفيل هبلتني إذاً يميني، وكيف باليمين التي آليت كلا أو أقضي من بكر أربى؟».

ثم تأوه المهلهل إذ هيّج الموقف شجونه، فزفر قائلاً:

إنّ في الصدر من كليب شجوناً
هاجسات نكأن منه الجراحا
أنكرتني حليلتي إذ رأتني
كاسف البال لا أطيق المزاحا
ولقد كنت إذ أرجّل رأسي
ما أبالي الإفساد والإصلاحا
بئس من عاش في الحياة شقيّاً
كاسف اللون هائماً ملتاحا
يا خليليّ ناديا لي كليباً
واعلما أنّه ملاقٍ كفاحا
يا خليليّ ناديا لي كليباً
ثم قولا له: (نعمت صباحا)
ويح أمّي وويحها لقتيلٍ
من بني تغلبٍ، وويحاً وواحا
يا قتيلاً نماه فرعٌ كريمٌ
فقده قد أشاب مني المساحا

كـــــيف أسلو عن البكاء وقـــــومي

قـد تفـانوا فكيف أرجـو الفـلاحـا (٦)

---

(١) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٦٤.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٧.

(٣) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٦٥.

(٤) أحمد العريفي، تلويحات، ص٨.

(٥) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٨٧.

(٦) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٦٦.

(نهاية المهلهل)

لا عجب في أن يعد المهلهل بطل «حرب البسوس» والشخصية الأبرز فيها والأكثر حضوراً في الذاكرة، فإن حماسته الشديدة للحرب جعلت الثأر يبدو كما لو كان ثأره وحده رغم أنه كان لكليب أخوة آخرون، وقُتل في الحرب سادة وفرسان حق لأهلهم أن يكونوا أصحاب ثأر أيضاً، ولكن المهلهل على ما يبدو لم يترك لأحد أن يظهر في الصورة، وبالتالي فإن وفاته كانت نهاية مثالية للحرب التي طال أمدها حتى ملها القوم وتصالحوا دون شروط وتكافؤ في الدماء فسميت حربهم بـ «البتراء» كما أسلفنا.

ومثلما وجدنا لنهاية جساس بن مرة روايتين، فهناك لنهاية عدوه المهلهل روايتان كذلك، وإن كانت الرواية الثانية أقرب للخيال منها إلى الحقيقة، ولذا نبدأ مع الرواية الأولى الأكثر منطقية:

● الرواية الأولى:

وتفيد بأن المهلهل عاد لنقض الحرب بعد عودته من اليمن، وصار يقوم بالغارات ويوقع بالبكريين حتى أسره في إحداها «عمرو بن مالك بن ضبيعة البكري» قرب «هجر»، فجاء إليه أخوال المهلهل وهم بنو يشكر البكريون (أم المهلهل هي المرادة بنت ثعلبة بن جشم اليشكرية)، فطلب المحلل بن ثعلبة خال المهلهل من عمرو أن يسلمه المهلهل ففعل خاصة وأن «ابنة المحلل» كانت زوجة لعمرو بن مالك.

وقالوا أن المحلل سقى ابن أخته المهلهل لما صار عنده خمراً، فتغنى الأخير سكراناً:

طفلةٌ ما ابنة المحلّل بيضاء
لعوبٌ لذيذةٌ في العناقِ
ضربت نحرها إليّ وقالت:
يا «عديّاً» لقد وقتك الأواقي

فـــاذهبي مـــا إليك غـــيـــر بعـــيـــدِ
لا يــواتــى الــعــنــاق مــن فــي الــوثــاق

مـــا أرجّي في العـــيـش بعـــد ندامـــاي
أراهـم ســـقـــوا بـكأسٍ حـــلاق

بعـــد «عـــمـــروٍ» و«عـــامـــرٍ» و«حـــبيٍّ»
و«ربـــيـــع الـصـــــدوف» و«ابـنـي عـنـاق»

و«امـــرئ الـقـــيـس» مـــيّتٌ يوم أودى
ثـم خلّـى عـلـيّ ذات الـعـــــراقـى

و«كـلـيـبٍ» سمّ الـفـــــوارس إذ حُـمّ
رمــــاه الـكـمـــاة بـالإيـفـــاق

فـــارسٌ يضـــرب الكتـــيـــبـــة بالســيـف
دراكـــــاً كـــــلاعب المخـــــراق (١)

فلما سمع المحلل تشبيب المهلهل بابنته غضب، فأعاده إلى آسره عمرو الذي أقسم ألا يذوق المهلهل عنده خمراً ولا ماء ولا لبناً حتى يرد جمله «ربيب» المورد الذي في الهضاب (وكان ربيب لا يرد في الصيف إلا كل خمسة أيام رغم حرارة الجو)، فقال له بعض من عطفوا على حال المهلهل من قومه: «يا خير الفتيان.. أرسل إلى ربيب فلتؤت به قبل وروده»، فاستجاب لهم وأورد ربيباً قبل موعده، ولكنه أشرب المهلهل ماء كدراً مات بسببه. (٢)

وهناك قول لابن الأثير أن عمرو بن مالك أحسن إسار المهلهل، فمر عليه تاجر يبيع الخمر قدم بها من هجر، وكان صديقاً للمهلهل فأهدى إليه زقاً من الخمر، فاجتمع إليه بنو مالك ونحروا عنده بكراً (أي بعيراً صغير السن) وشربوا معه، فلما سكر المهلهل تغنى بشعر فيه البكاء على كليب وتهديد البكريين.

فلما سمع عمرو ذلك قال: «إنه لريّان، والله لا يشرب عندي ماء حتى يرد ربيب»، فحاول بنو مالك في «ربيب» أن يرد قبل الأيام الخمسة فلم يقدروا عليه ومات المهلهل عطشاً. (٣)

■ ■ ■

● الرواية الثانية

وتقول إن المهلهل بن ربيعة لما أسنّ وخرف كان له عبدان يخدمانه، وقالوا بل كان يغزو بهما أيضاً على بيوت البكريين حتى ملاّه وسئما من صحبته، فخرج بهما ذات مرة في سفر، وبينما هما معه في بعض الخلوات في الصحراء عزما على قتله والإدعاء بأنه مات حتف أنفه، فلما أحس بذلك كتب على قتب راحلته:

(من مبلغ الحيّين أنّ مهلهلاً)

(لله دركما ودرّ أبيكما)

ثم طعنه أحدهما فكان المهلهل شجاعاً في مواجهة الموت إذ قال لقاتله: «ثكلتك أمك. لو أخذت البيضة (الخوذة) عن رأسي لكفاك أخذها (لقتلي) دون أن تمد يدك في سيدك»، فأخذ القاتل البيضة فصعب عليه إخراجها، فاقتلعها مع زميله قلعاً فخرجت معها جلدة رأس المهلهل، وظهر دماغه ينتفض من تحتها!! (٤)

ولما فرغا من قتله رجع العبدان إلى قومه يتباكيان ويصيحان بأن سيدهما مات في الفلاة، ولكن سلمى بنت المهلهل قرأت ما على القتب من شعر فقالت: «إن أبي لا يقول هذا الشعر وإنما أراد:

(من مبلغ الحيّين أنّ مهلهلاً)
أمسى قتيلاً في الفلاة مجندلاً

(لله دركما ودرّ أبيكما)
لا يبرح العبدان حتى يقتلا (٥)

وزعموا في رواية أخرى أن المهلهل قال للعبدين قبل قتله: «إن كنتما لابد منفذين عزمكما في قتلي والتخلي عني، فإني أوصيكما أن تبلغا الحي ما تسمعان مني وقال لهما البيت الأول، فلما عرفت ابنته «سلمى» زوجة الهجرس بن كليب ما أراد أبوها أخذوا العبدين فعذبوهما حتى اعترفا بفعلتهما فقتلا به. (٦)

ومما يشكك بصحة هذه الرواية أن هذين البيتين يرويان أيضاً بصياغة

مختلفة بعض الشيء كجزء من قصيدة تنسب للمرقش الأكبر وهو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكري قالها قبل الغدر به وقتله بتغيير كلمة «مهلهلاً» إلى «مرقشاً»، وأولها:

يا صاحبيّ تلبّثا لا تعجلا

إنّ الرواح رهين ألاّ تفعلا

وللقصيدة قصة تشبه تلك القصة المنسوبة للمهلهل. (٧)

هذا وقد أورد الصفواني في كتابه مرثيتين مشكوك في صحتهما لسلمى ابنة المهلهل في أبيها، والظاهر أنهما من انتحالات الرواة وأكاذيبهم، ويزعمون أنها قالت في الأولى:

أعينيّ جودا بالدموع السوافحِ

على فارس الفرسان في كلّ صافحِ

ألا تبكيان المرتجى عند مشهدٍ

يثور مع الفرسان نفع الأباطح

«عدياً» أخا المعروف في كلّ شتوةٍ

وفارسها المهيوب عند التكافح

رمته بنات الدهر حتى انتظمنه

بسهم المنايا إنّه شرّ رائح

كأن لك يكن في الحيّ حيّاً ولم يرح

إليه عناة الناس أو كلّ راشح

وفي الثانية:

منع الرقاد لحادثٍ أضناني

ووني العزاء وعادني أحزاني

لمّا سمعت بنعي فارس تغلبٍ

أعني «مهلهل» قاتل الأقران

المرتجى عند الشدائد إن غدا

دهرٌ حروبٌ معضل الحدثانِ

والمســـتـــغـــيث بـه الـعـــبــــاد ومـن بـه
يُـحـــمـى الـذمـــار وجـــيـــرة الـجـــيـــرانِ (٨)

---

(١) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٣٣، وللعلم فبين المراجع قديماً وحديثاً اختلاف كبير في إسم والد الفتاة بين «المحلل» و«المجلل»، ومن الصعب الجزم في أي منها لكثرة التصحيف في المراجع قديماً وحديثاً.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٣٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م١، ص٥٣٥.

(٤) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص١٦٢.

(٥) محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص١٦٨.

(٦) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٦٥.

(٧) حسن السندوبي، أخبار المراقسة، ص٢٦٦.

(٨) سلمان الصفواني، تاريخ الحروب العربية، ص١٦٣.

الفصل الثالث:

حكاية الزير
كما روتها السيرة الشعبية



● لقطة من المسلسل وتظهر شخصيتي امرئ القيس بن أبان والزير

(قبل أن تقرأ السيرة!!)

عرف التراث العربي عدداً من السير الشعبية التي كانت زاد «الحكواتي» في عمله، ومادة ليالي السمر لدى كثير من الشعوب العربية خاصة في مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى وجود آثار لهذه السير في الجزيرة العربية وأماكن أخرى، ومن أبرز هذه السير التي تمت طباعتها طبعات شعبية رديئة دون أي تحقيق أو مجهود بحثي: «السيرة الهلالية - سيرة الزير سالم - سيرة عنتر بن شداد - سيرة سيف بن ذي يزن - سيرة الأميرة ذات الهمة - سيرة حمزة البهلوان»، ولعل أبرز ما تتسم به هذه السير بصفة عامة مع الأخذ بعين الإعتبار التفاوت فيما بينها:

١- الإتكاء على أسطورة لها تواجد تاريخي في الأساس، وأخذ المعلومات الأساسية من الروايات التاريخية ثم إفلات عنان الخيال إلى أقصى غايات الجموح لتوليد الأحداث التي تروق للمستمع.

٢- المبالغة في وصف بطولات أصحاب تلك السير وعظم الإنتصارات التي يحققونها، فالمعارك يقتل فيها الآلاف، والدماء تسيل أنهاراً، والجيوش تقدر بعشرات بل ومئات الآلاف!!

٣- كثرة قصص الحب والغرام في معظم هذه السير، فالبطولة والعشق وجهان لعملة واحدة فيها، وأحدهما يوصل للآخر في الغالب.

٤- الإتكاء على الخرافات وتأثيرات السحرة ونبوءات ضاربي الرمل والمشعوذين في تغيير أحداث الحكاية وتسيير حركتها.

٥- الخلط في الأنساب الحقيقية لأصحاب السير، وعدم الإهتمام كثيراً بما يطرحه الواقع والمنطق وعلم التاريخ في هذه الناحية.

٦- الإحتفاء بالشعر وخاصة العامي منه، وهو في الغالب شعر ردئ الصنعة سقيم متكلف، ويقوم مقام الحوار في كثير من الأحيان، وقلما تجد شخصاً في

بعض هذه السير لا يقول شعراً!!

٨- لغة السرد الرديئة المترنحة بين الفصحى والعامية، والميل السمج للتسجيع، وتقفية الجمل، وإسباغ الصفات السخية على أبطال السير، والمبالغة العامة في الوصف.

هذا.. ولا تخرج «سيرة الزير سالم» - التي لا يُعرف لها مؤلف بالطبع - عن النسق العام الذي ذكرناه آنفاً لبقية السير الشعبية التي كانت زينة السمر في ليالي الماضي بمصاحبة الربابة والراوي المفوّه القادر على شد مستمعيه بتلوينات صوته وتهويمات يديه.

وقد وجدت من المناسب أن أقدم لقارئ هذا الكتاب مختصراً لما تطرحه السيرة الشعبية للزير بلغة مبسطة واختصار مدروس يمكّنه من الإطلاع على ما تريد السيرة قوله، وليتمكن بنفسه بعد ذلك من مقارنة ما قالته كتب التاريخ وما ذكرته السيرة حول حكاية المهلهل التغلبي وحرب البسوس، وأعتقد أن في ذلك فائدة جيدة للقارئ في تصوّر المقارنة التي سنعقدها لاحقاً بين (مجمل الرواية التاريخية - السيرة الشعبية - المسلسل التلفزيوني):

وفيما يأتي مختصر السيرة الشعبية للزير:

﴿مختصر السيرة الشعبية للزير سالم﴾

في ذلك الزمان كانت قبائل العرب منقسمة الى قيسيين ويمنيين، وظهر من القيسيين «ربيعة» وأخوه «مرة» إبني وائل في أطراف الشام، وكانا يحكمان قبيلتين من العرب هما «بكر وتغلب»، وكان لربيعة أولاد منهم: «كليب، وسالم الزير، وعدي، ودريعان» وله بنت جميلة هي «ضباع». أما مرة فله أولاد منهم: «همام، وسلطان، وجساس» وبنت جميلة هي «الجليلة»، فخطب مرة ابنة أخيه ضباع لولده همام، وتم الزواج السعيد الذي أثمر ولدين هما: «شيبون، وشيبان».

■ ■ ■

● حادثة التبع حسان اليماني

كان ملك اليمن حسان التبع يتزوج كل ليلة بابنة من بنات الملوك الذين كانوا يخشون سطوته ويحملون إليه الخراج، فسأل ذات ليلة وزيره العاقل «نبهان»: «هل يوجد في العرب من يساويني في الملك والمنعة؟»، فأخبره عن بني قيس وأميرهم «ربيعة» الأمر الذي أغاظ التبع اليماني وجعله يقرر غزو ربيعة في عقر داره.

وأثناء مسيره إلى الشام استعان التبع بابن أخته «الرعينى» ملك الحبشة الذي جاء إليه بالرجال والأمداد كما لحقت به الملوك من كل جانب، ولما وصلوا الى الشام اضطر نائب ربيعة في دمشق المسمى «زيد بن علام» للترحيب بالتبع ومبايعته مما أغضب ربيعة، ولكنه لم يملك في النهاية بعد استشارة قومه إلا أن يسير في وفد محمل بالهدايا للتبع، وبينما خضع الوفد للملك وانحنوا جميعاً له ظل ربيعة واقفاً متحدياً مما دعا التبع لأن يأمر بشنق ربيعة.

وتمزق بنو قيس بعد مقتل ربيعة، وضعفوا كما خضع أخوه مرة لسطوة التبع. وجاء أنسباء ربيعة أخوال بنيه يزعمون الخضوع للملك، وينتظرون

الفرصة المواتية للأخذ بثأر صهرهم. (١)

وفي تلك الأثناء سمع التبع بجمال الجليلة ابنة مرة، فأرسل إلى أبيها طالباً الزواج بها رغم علمه بأنها مخطوبة لابن عمها كليب، وأنشد هذه الأبيات:

يقول التبّع الملك اليماني
ملكت الارض والسبع البحار
ألا يا غادي مني لمرّة
على فرسٍ تشابه ريح ساري
أيا مرّة فأرسل لي الجليلة
بلا إهمال من بين السراري
سمعتُ بأنّها زينة مليحة
ويخجل حسنها ضوء النهار
أريد تكون باكر وسط قصري
وتتسلّط على كلّ الجواري
وأرسل جزية السبع المواضي
خزاين في صناديقِ كبارِ
واحضر يا ملك مرّة لعندي
واخضع لي بذلٍّ وانكساري

فذهب الوزير نبهان بهذا الطلب الذي ادعى مرة قبوله، ولكنه طلب مهلة ثلاثة أيام لتحضير جهاز الجليلة في حين أرسل لابن أخيه كليب يستشيره في الأمر.

بعد ذلك ذهب كليب إلى صديق له يدعى «العابد نعمان»، والذي أشار عليه أن يجهز مائة صندوق يتكون كل صندوق من طبقتين أفقيتين فيضع في العليا رجلاً محارباً وفي السفلى جهاز الجليلة، ووضع العابد خطة مفادها أن يرافق كليب الجهاز بصفته مهرجاً للجليلة، وأخبره أن ما يحمى التبع من أعدائه هو طلسم على شكل سلسلة نحاسية موجودة على باب قصره، فليحرص علي انتزاعها قبل محاولته قتل التبع.

وبالفعل أقبل الوفد بالجهاز لكن ضارباً بالرمل أخبر التبع عن تفاصيل

المؤامرة مما دعاه لإرسال العبيد للكشف عن الصناديق، ففتحوا الجزء الأسفل من الصناديق فلم يجدوا سوى الجهاز، وعندما سأل التبع عجوزاً لها معرفة أكبر بالضرب بالرمل عرفت سر الحيلة، ولكنها آثرت عدم إخبار التبع لمعرفتها أن الأمر سيؤول لكليب في نهاية الأمر، فكذّبت ضارب الرمل الأول وطمأنت التبع ثم ذهبت الى كليب فأخبرته بما عرفت ووعدته بالمساعدة.

ولما وصل الوفد استقبله التبع بالترحاب، واجتمع بالجليلة التي أخبرته عن مهرجها المضحك وطلبت احضاره ليسعدهما في هذه الليلة، وبالفعل دخل كليب بعد أن قطع السلسلة الطلسم، وصار يضحك الملك بالألاعيب متحيناً الفرصة حتي استطاع الإمساك بسيف التبع وشهر السيف في وجهه معرفاً بنفسه ثم قتله ثأراً لأبيه (٢)، وسيطر كليب بهذا على الشام.

■ ■ ■

● الزواج بالجليلة والحرب مع عمران:

تزوج كليب من الجليلة وبنى لها قصراً لا مثيل له، وجاءت الأخبار عن استعداد ابن عم للتبع يدعى «عمران القصير» للأخذ بثأره، فخرج كليب للقائه وبعد مبارزات مع آخرين تمكّن عمران من قتلهم بارزه كليب واستطاع قتله بنفسه، وسار كليب بعد ذلك حتى مَلك اليمن.

وفي أحد أيام استأذن مرة من ابن اخيه كليب بالانتقال مع قومه الى واد كثير النبات، وهناك أقام ابنه جساساً محله في الزعامة حتى اشتهر الأخير بين الأعراب بالكرم والشجاعة.

وذات يوم اجتمع أولاده مرة وضربوا بالرمل، فرأوا أن جساساً سيقتل كليباً مستقبلاً، وأن أخاه الزير سوف يأخذ بثأره منهم، فأجمعوا أمرهم على قتل الزير قبل أن يكبر، وذهبوا الى أختهم الجليلة زوجة كليب وأخبروها بالأمر، وطلبوا منها المساعدة في التخلص من الزير.

■ ■ ■

● محاولات الجليلة التخلص من الزير:

قامت الجليلة بعدة محاولات للتخلص من الزير ورميه في المهالك، وهي كالآتي:

١- اتهمته لدى زوجها كليب بأنه راودها عن نفسها، وقالت لكليب شعراً:

مقالات الجليلة بنت مرّة

كليب انته يا قيدوم السرايا

وتحكم في القبايل والعشاير

وفي كلّ المداين والقرايا

وحكمك نافذٍ في كلّ أرضٍ

وتخدمك الملوك مع الرعايا

وإنّي بنت عمّك يا مسمّى

ومثلي ليس يوجد في البرايا

أتاني الزير خيّك في غيابك

يريد فضيحتي بين الصبايا

قبضت عليه من عنقه فولّى

وراح بسرعةٍ وسط الخلايا

فصدّق كليب قولها وغضب غضباً شديداً، فاستدعى الزير وشتمه وضربه ونزع عنه ثيابه الحريرية، وأرسله ليرعى النوق مع الرعاة.

٢- لم تكتف الجليلة بذلك فاتهمت الزير أنه يتبذّل مع الرعيان، وطلبت من كليب أن يتخلص من العار الذي سيجلبه الزير له بأن يرميه في وادي السباع، فأخذه كليب في رحلة صيد وهناك ظهر لهما أسد لم يستطع كليب أن يتخلص منه، فقام الزير بقتل الأسد وأنقذ أخاه مما جعل كليباً يندم على ما نوى ويشكر الزير على صنيعه.

٣- لم تكتف الجليلة بذلك وزادت في التشنيع على الزير، فطلبت من كليب أن يأخذه الى بئر السباع، ويدليه لجلب الماء ثم يقطع الحبل ليسقط في البئر ويموت، فوافقها كليب وأخذ أخاه الزير مع مائة من الفرسان، ولما نزل الزير تزاحمت الخيل على البئر، فصرخ الزير من داخل البئر صرخة أجفلت الخيل مما جعل كليباً يندم على ما فعل وقام بإخراج الزير من البئر.

٤- لما فشلت المحاولات السابقة أظهرت الجليلة أنها مريضة، وأن «دايتها» أخبرتها أن علاجها هو حليب السباع الذي سوف يشفيها ويأتيها بولد ذكر لكليب وكانت تنجب البنات قبل ذلك، فأرسل كليب أخاه الزير ليملأ إناء من حليب لبؤة، وسار الزير حتى قتل أسداً وأسر لبؤة ونحرها وملأ من حليبها الإناء كما جاء بأشبالها الي الديار مربوطين بالحبال!!

٥- بعد ذلك طلبت الجليلة من كليب أن يدّعى المرض، ويزعم أن علاجه هو شربة من ماء بئر السباع، وبالفعل طلب كليب من الزير أن يأتيه بالماء المطلوب، فوضع الزير قربتين علي حماره وسار إلى البئر، فلما نزل للبئر جاء أسد وأكل حمار الزير، وحين خرج الزير غضب لحماره، فألبس الأسد بردعة الحمار وسار به الى الديار ثم قتله ثأراً للحمار.

ولما عاد الزير بالماء شكره كليب وندم على نياته السابقة، وأعاد مكانة الزير السابقة بين القوم، فطلب الزير منه أن ينزله قرب بئر السباع مبتعداً عن الديار قائلاً: «لقد صار لي ثأر عند السباع فلابد أن أقتل جميع الأسود أو يعود حماري حيّاً»، وهكذا أقام الزير منفرداً يقضى أيامه في قتل السباع حتي بنى من رؤوسها قصراً، وصارت صداقته وطيدة مع ابن عمه همام بن مرة، فكانا يتنادمان منفردين في تلك البراري.

■ ■ ■

● مجيء البسوس:

كانت البسوس واسمها (سعاد) أختاً للتبع حسان اليماني (٣)، فتزوجت من ملك يدعى سعد، وبعد أن أصيب سعد بالعمى صارت هي التي تحكم مكانه، فلما سمعت بقتل أخيها على يد كليب تنكرت في زي شاعرة جوالة، وجاءت مع زوجها وبناتها الى جساس، وصارت تحرضه على ابن عمه كليب، ولما علم الأخير بذلك طلب من جساس إخراج البسوس من دياره، ولكن جساساً رفض ذلك وصار يعدّ للقتال مما دعى كليباً للاستنجاد بأخيه الزير طالباً منه الرجوع إلى الديار وقد خشي من غدر جساس به، فقال له الزير: «إنني بنيت قصراً من رؤوس السباع ثأراً لحماري، فلا تخش شيئاً فإنه لن يستطيع

التعرض لك ما دمت حيّاً»، وطلب البقاء في مكانه حتى يستكمل قتل السباع الباقية ثأراً لحماره!!

أما البسوس فكانت لها ناقة جرباء، فأمرت عبدها أن يعطر الناقة ويمر بها على جساس ويدعى أن هذه ناقة من سلالة ناقة صالح ﷺ وهذا العطر ينبع منها، فأعجب جساس بالناقة وطلبها من البسوس لكنها بكت وقالت: «إنني تركت بلادي خوفاً على هذه الناقة»، فطمأنها جساس بأنه لن يأخذ الناقة رغماً عنها واسترضاها، فقالت له البسوس: «إن هذه الناقة لا ترعى إلا من الكروم والرياحين التي في بساتين كليب»، وطلبت منه أن يتركها ترعى هناك، فسمح لها جساس بالذهاب لترعى في حدائق قصر كليب، فأمرت البسوس عبيدها أن يكسروا أسوار حدائق كليب ويسيئوا الأدب هناك، ولما علم كليب بما فعل رعاة الناقة أمر بذبحها عقاباً على ما فعل الرعاة.

وبالفعل ذبحت الناقة واستغلت البسوس الفرصة، فصارت تبكي وتطالب بالثأر لناقتها المباركة (!!) مما دعا جساس لارسال رسالة لكليب يسأله فيها عن سبب ذبحه للناقة، ولكن البسوس أخذت الرسالة دون علمه وزادت عليها عبارات شتم وتهديد لكليب الذي مزق الرسالة، فلما علم جساس بتمزيق رسالته غضب وعزم على الانتقام، وكان قد حاول استرضاء البسوس بأي ثمن تطلبه للناقة فقالت: «لا أقبل ثمناً إلا أن تملأ خرجي بالنجوم - أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم - أو رأس كليب بالدماء يعوم»، وعندها علم جساس أن الرد الوحيد الممكن هو قتل كليب فعزم على قتله.

■ ■ ■

● مقتل كليب:

ذهب جساس للقاء كليب، فعلم أنه ذهب منفرداً في «وادي الحصا والجندل» دون سلاح سوى خيزرانة يتعصّى بها، وهناك حاول جساس محادثته وجهاً لوجه دون جدوى لأنه كان من عادة كليب ألا يلتفت لأقل من مائة فارس، وحين عاتبه جساس على قتله الناقة ذكر له كليب سوء أدب الرعاة، وأثناء هذه المحادثة جاء عبد للبسوس أرسلته لتعقب جساس، وصار

يحرضه علي القتل، وبالفعل طعن جساس كليباً في ظهره بعد حوار بينهما. ثم أنه ندم بعد ذلك على ما فعل، وسقى كليباً الماء وفر هارباً.

أما العبد فقد أراد الاجهاز على كليب، فطلب منه الأخير أن يمهله لكتابة وصيته بدمه، وبالفعل كتب كليب قصيدتين يوصى بها أخاه الزير بعدم المصالحة مهما حدث، وقال في الأولى:

يقـــول كـليـب.. إسـمـع يا مـهـلـهل
مـذلّ الخـيل قـهـار الأسـود
علـى مـا حلّ مـن جـسّاس فـيّـا
طعـنـي طـعـنـةٍ مـنـهـا بـعـود
أيـا سـالـم تـوصّى بـاليـتـامـى
صـغـارٍ بعـدهـم وسط المهـود
واسـمـع مـا اقـول لك يا مـهـلهل
وصـايا عـشـر إفـهـم المقـصـود (١١)
فـأول شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
ولـو أعـطوك زيـنـات الـنـهـود
وثانـي شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
ولـو أعـطوك مـالٍ مـع عـقـود
وثالث شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
ولـو أعـطوك نـوقٍ مـع قـعـود
ورابـع شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
واحـفـظ لـي ذمـامـي والـعـهـود
وخـامس شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
وقـد زادت بـنـيـراني وقـود
وسـادس شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
فـان صـالحت لست أخي اكـيـد
وسـابع شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
واسـفك دمّـهـم في وسط بيـد
وثامـن شـرط اخـويا: لا تـصـالـح
واحـصـد جـمـعـهم مـثل الحـصـيد

وتاسع شـرط اخـويا: لا تصـالح

فـاني اليـوم في ألمٍ شـديد

وعـاشـر شـرط اخـويا: لا تصـالح

وإلاّ قـد شكوتك للمـجـيـد

وكتب كليب أيضاً بدمه القصيدة الثانية فقال:

يقـول كليب من سـادة ربيـعـة

ودمـعي فـوق خـدي كـالقناه

جـفـاني الدهر خـلاني سـقـيمٍ

وهذا الدهر كم مـثـلي فناه

خـرجت آنا على مـهـري أسـيـر

ولا بيـدي أنا غـيـر العـصـاه

فـاذا ابن مـرّة جـاء خلفي

يبي قـتـلي وابليسٍ طغـاه

ضـربتـه في عـصـاتي فـوق ظهـره

تقـنطـر راح من فـوق الوطاه

أتى من خلفـهِ عـبـدٍ عـريبٍ

سـريعِ أركـبـه وقَف حـذاه

تعـدّى وجـاءني في حـالْ سـرعـة

ونارٍ بالحـشـا زادت لظاه

وقـال لي دير وجـهك يا ابن عـمّي

يريد الغـدر منّي بالقـفـاه

فـأحكم طعنةٍ فـيّـا سـريعِ

وغـدا جـسّـاس هارب بالفـلاه

هديت لك الهـديّة يا مـهلهل

ثمـان ابيـات تفـهـمـهـا الذكاه

فـأول بيت اقـول: اسـتـغـفـر الله

إلاه العـرش لا يعـبـد سـواه

وثاني بيت اقول: الملك لله
بسيط الارض رفّاع السماه
وثالث بيت: توصّى باليتامى
واحفظ العهد واياك تنساه (!!)
ورابع بيت: اقول الله اكبر
عليّ الدهر لا تنسى اذاه
وخامس بيت: جسّاسٍ غدرني
وناظر جرحي يعطيك النباه
وسادس بيت: قلت الزير اخويا
شديد البأس قهّار العداه
وسابع بيت: سالم كون راجل
لأخذ الثأر لا تعطي وناه
وثامن بيت: بالك لا تخلّي
فلا شيخٍ كبير ولا فتاه

ولما أجهز العبد على كليب ذهب إلى البسوس يبشرها، وهكذا حققت البسوس مرادها فهربت ومن معها الي غير رجعة عن الديار بعد أن أشعلت نار الحرب .

■ ■ ■

● الحرب:

عاد جساس لأبيه مرة فأخبره بما فعل، فغضب مرة ولام جساساً على ما فعل، وأراد أن يسلمه للقتل إلا أن بقية أبنائه شجعوا جساساً على ما فعل ومنعوا أباهم من تسليمه، وأرسلوا جارية لأخبار أخيهم همام الذي كان ينادم الزير في البراري بالأمر، فلما جاءت الجارية وعلم همام بما حدث حاول إخفاء الأمر عن الزير، ولكنه اضطر لأخباره مما دعا الزير لطرده وتهديده بالحرب، وبعد ذهاب همام جاء ولده شبيان الى خاله الزير مهدداً ومتهماً إياه بالعجز مما دعى الزير لقتله ليكون شيبان هو أول قتلى الحرب. (٣)

جاءت اليمامة ابنة كليب إلى عمها الزير تستنجد به لأخذ الثأر، وتمت مبايعة الزير بعد أخيه ملكاً على تغلب كما طردت نساء القبيلة «الجليلة» إلى أهلها، فخرجت وهي حبلى بولد لكليب سيأتي ذكره فيما بعد.

أما مرة فقد سار بقومه إلى وادي الذئاب بعيداً عن التغلبيين وانضمت اليه بعض القبائل، فلحق بهم الزير ونازلهم مدة ثلاثة شهور حتى قتل منهم الآلاف (!!) وغنم منهم الأموال الوفيرة، وهرب آل مرة من وجه خوفاً من انتقامه لمقتل أخيه.

وفي تلك الفترة رأى «العابد نعمان» الذي سبق ذكره رؤيا مفادها أنه ستمر على الزير سبع سنوات منحوسة، فذهب إليه ونصحه ألا يدخل خلالها في حرب، فاستجاب الزير لذلك وانشغل بالمدام والصيد.

وفي السنة السادسة من سنوات النحس رأى جساس كابوساً مرعباً مفاده أن ذئباً سيفتك بقومه، وأخبره المنجمون أن تفسيره هو شر عظيم سيأتيهم من جانب الزير، ونصحوه بالإستيلاء على حصان محظوظ يسمى «عدم» يملكه عدي أخو الزير، فاستغل جساس غياب الزير في الصيد وذهب لأبنة أخيه اليمامة بنت كليب فأخذ الحصان رغماً عنها.

ولما علم الزير بذلك أرسل أخاه عدياً متنكراً لآل مرة بصفته سائس للخيول من أهل الصعيد(!!)، وبالفعل تمكن عدي من خداعهم والفرار بالحصان، وأعاده لأخيه الذي قام بعد ذلك بغارة شديدة فتك بآل مرة خلالها.

وكان من عادة الزير أن يذهب بعد كل معركة إلى قبر أخيه كليب فيسأله: «هل اكتفي بذلك أم أواصل الحرب؟» وبالطبع لا يسمع رداً فيكمل الحرب، فأرسل آل مرة رجلاً اختبأ داخل القبر حتى إذا طرح الزير سؤاله أجابه الرجل بأنه اكتفى، وكادت الحيلة تنطلي على الزير لولا أنه كشفها في آخر المحادثة، وقبض على الرجل ثم أطلقه ليخبر آل مرة بفشل خديعتهم.

أما جساس فقد ذهب واخته الجليلة إلى الحبشة ليستنجد بالملك الرعيني مبقياً أخاه «شاويش» في الديار، وبعد أعجاب الرعيني بجمال الجليلة وافق

على مساعدة قومها وسار لحرب الزير في بلاد الشام، ولما علم الزير بذلك تنكر في زي شاعر متجول وذهب إلى الرعيني مادحاً، وتمكن من مغافلة الحضور وقتل الملك الرعيني مما دعا الجنود للفتك بآل مرة لاعتقادهم بأنهم المتسببين بذلك، وعاد الزير الى قومه فأكمل الهجوم على الأحلاف المتقاتلين فيما بينهم.

وخرج الزير ذات يوم فالتقى ببنى تميم، فوجدهم معتزلين الحرب فاغتاظ لذلك وهجم علي بنى بكر، ورمى رؤوس القتلى عند بني تميم الذين اضطروا بسبب ذلك للانضمام للزير في حربه خشية من انتقام البكريين.

ولما عظمت الأمور علي جساس لجأ الي «العابد نعمان» طالباً وساطته في هدنة لايقاف الحرب، فرق له العابد وقام بذلك ووافق الزير على الهدنة وعاد إلى حياة اللهو والمدام.

■ ■ ■

● غياب الزير لدى اليهود:

إستغل جساس وأخوته مرض الزير أثناء تلك الهدنة، فقام سلطان بن مرة بالهجوم على خيمة الزير والقبض عليه بعد جرحه جراحاً شديدة، وسلموه لأخته ضباع لتقتله ثأراً لولدها، فاظهرت ضباع الفرح وأخذت الزير وألقته داخل صندوق رمته في البحر وادعت أنها احرقته بالنار، وكثرت الأحزان على قوم الزير، وفرح جساس بمقتل غريمه وانتقم من قوم الزير حيث نهب أموالهم وأخذ جمالهم واشترط عليهم أن لا يوقد ناراً ولا يركبوا الخيل.

أما الزير فقد ساقته للأمواج الى مدينة «بيروت» حيث تلقفه ملكها اليهودي «حكمون بن عزرا» وعالجه، ولما أفاق الزير أخبرهم أن اسمه «الموحد» وأنه كان سائساً لأحد الملوك وقد تآمر عليه رفاقه السياس وألقوا به في البحر، وبعد ذلك غيّر الزير أقواله فادعى أنه ابن لأحد الملوك تغيّر به الزمان مما أغضب حكمون عليه لهذا الكذب والقى به في السجن.

ظل الزير في سجن اليهود سنة واحدة الى أن أطلقه حكمون وجعله سائساً للخيول، وخلال هذه الفترة أخذ الزير فرساً أصيلة وألقحها من حصان البحر

فولدت مهراً أدهماً أسماه (الأخرج)، وفي السنة التالية أولدها مهراً آخر بنفس الطريقة أسماه (أبا حجلان) واستمر على هذه الحال أربع سنوات.

وفي تلك الفترة هاجم أحد ملوك الروم المدعو «برجيس الصليبى» بيروت لتخلف الملك حكمون عن دفع الخراج له، واستعد الفريقان للحرب فجرت معركة فتك الصليبي بها باليهود، ولما سمع الزير أصوات القتال تاقت نفسه إلى الحروب، فصار يركب الحائط كالحصان ويضرب برجليه ويشجع مستضيفه على القتال، فلما رأته ابنة الملك حكمون المسماة (أستير) أعلمت أباها الذي رأى فعل الزير بنفسه في اليوم التالي، واستدعاه طالباً منه المشاركة في القتال.

إشترط الزير على مستضيفيه أن يجيئوه بحصانه الأخرج ليحارب عليه، وبالفعل قاتل الزير قتال الأبطال، واستطاع قتل سمعان أخى الملك برجيس الصليبي ثأراً لمقتل صهيون أخى الملك حكمون في معركة سابقة مما دعا برجيس لطلب المصالحة والانسحاب بفلول قواته.

أنعم الملك حكمون على الزير بنيشان من الماس بعد أن عرف حقيقته، وبناء على طلبه جهّزه بسفينة تعيده إلى حيفا آخذاً معه حصانه الأخرج وعدة القتال.

■ ■ ■

● عودة الزير:

عاد الزير إلى دياره متنكراً فحل ضيفاً على جساس الذي استغرب من هيئته وقال له: «ادع لي يا شيخ؟»، فقال الزير: «إنني دائماً أدعو لك ولست بناسيك على طول الزمان»، فازداد جساس خوفاً منه، وخرج الزير عائداً الى قومه حيث التقى باليمامة فلم تعرفه أول الأمر ثم عرفها بنفسه، وعمت الأفراح بعودته.

أما مرة والد جساس فقد ذهب إلى ساحل البحر، ووجد سفينة الزير وبها حصانه الأخرج فأخذ الحصان غصباً، ولما علم الزير بذلك غضب وركب السفينة عائداً الى الملك حكمون طالباً حصانه الآخر (أبا حجلان) فأخذه وعاد إلى الديار.

وقال الزير متأهباً لأخذ الثأر بعد عودته من عند اليهود راداً على أمه التي نصحته بالمصالحة:

يقـــــول الـزيـر ابـو لـيـلـى المـهـلـهـل:

وقلب الزير قـــاسي مـــا يلينا

وإن لان الحـــديد مـــا لان قلبي

وقلبي من حـــديد القـــاســـينا

تريدي يا «أمـــيـــمـــة» أن أصـــالح

ومـــا تدري بما فـــعـلوهُ فـــينا

فـــسبع سنين قـــد مـــرّت عليّـــا

أبات الليل مـــغـــمـــومِ حـــزينا

أبـات الـلـيـل أنـعـي فـي كـلـيـبِ

أقـــــول لـعـلّـهُ يـأتـي الـيـنـا

كـــأنَّ كليب في روس المعـــلاَّ

تغـــشّـــاه الذياب الجـــايعـــينا

فـــإن دارت رحـــاهم مع رحـــانا

طحنّاهم وكنّا الطاحنيـــينا

أقـــاتلهم على ظهـــر المطهّم

«أبو حـــجـــلان» مطلوق اليـــمـــينا

فـــشـــدّي يا يمامـــة المهـــر شـــدّي

وإكـــسي ظهـــره الســـرج المتـــينا

إستعد الزير للقتال وركب حصانه ابا حجلان، وغزا قوم جساس حتي فتك بهم ثم غزاهم مرة ثانية، وبارز شاويش بن مرة أخي جساس فقتله بعد مبارزة طويلة.

وطلب جساس الرأي من قومه في هذه المصائب المتلاحقة، فرأوا أن يذهب أخوه سلطان والجليلة إلى الزير لطلب عفوه مقابل آن يجعلوه ملكاً عليهم ويدفعوا له الجزية، ولما ذهبوا إلى الزير جعل الرأي في يد ابنة أخيه اليمامة التي رفضت الصلح، وطلبت عودة أبيها كليب حياً مقابل الصلح، وهكذا رجع وفد الصلح مخذولاً.

وكان سلطان بن مرة ذا حيلة ودهاء، فأمر بحفر ثلاث حفر وتغطيتها للايقاع بالزير أثناء القتال، وعندما حدثت الحرب سقط الزير في الحفرة الأولى فوثب به حصانه أبو حجلان وأخرجه، وهكذا في الثانية، ولكنه سقط في الثالثة وجاء آل مرة لقتله فيها لولا أن أخوة الزير تمكنوا من قتل عمهم مرة واخراج الزير من الحفرة. (٤)

وعادت الحرب من جديد وفتك بهم الزير في عدة وقعات، ودخل في الحرب شيبون بن همام الذي كان غائباً في بلاد الروم، واستعد للاخذ بثأر أخيه من خاله، فأرسل للزير مهدداً وجرت بعد ذلك معركة خرج فيها شيبون لمبارزة خاله الذي تحاشى قتله إكراماً لأخته أول المبارزة ثم اضطر لقتله في نهاية الأمر.

أما همام بن مرة فقد غضب لمقتل ولده وطلب مبارزة صديقه الزير متنكراً لأنه كان بينهما عهد أن يتقاتلا، فقتله الزير وهو لا يعلم أنه همام، فغضبت ضباع من أخيها لقتله زوجها وولديها وذهبت إليه، فتمكن من استرضائها وأسكنها عنده.

بعد ذلك استنجد جساس بأهل إقليم اليمامة في نجد، فجاءه الفند بن سهل الفارس الشجاع، والتقوا في «عقبة الريحان»، وهنا أشار الحارث بن عباد عليهم بحلق الرؤوس ومشاركة النساء في القتال، وقد استثنى من الحلق رجل قصير يدعى «ربيعة بن مروان» افتدى رأسه بقتل فرسان من تغلب، ولما حدثت المعركة قتلت النساء «ربيعة» القصير بعد أن جرح في المعركة حيث اعتقدنه من اعدائهن لعدم حلقه شعره، واستمرت المعركة أياماً حتي انكسرت تغلب وقُتل في المعركة صديق الزير «امرؤ القيس بن أبان»، ولكن المهلهل تمكن من إعادة الكرة حتى انتصر على اعدائه، واتفق الفريقان بعد ذلك على إيقاف الحرب لمدة شهرين.

■ ■ ■

• حكاية الجرو بن كليب:

كانت الجليلة قد ولدت بعد مقتل كليب ولداً أسمته الهجرس ولقبوه بالجرو، وأخفت نسبه واخبرته أنه ابن شاليس من بني بكر فنشأ بين أخواله، وتبارز ذات يوم في اللعب مع ابن خاله عجيب بن جساس فغلبه الجرو مما دعا عجيب لتهديده وشتمه، وكان ذلك سبباً لغضب الجرو الذي رحل مع أمه الى خال أبيه كليب «منجد بن وائل».

أظهر الجرو شجاعة عند خال أبيه في احدى الغزوات فزوجه من ابنته (بدر)، وندم جساس على ذهاب أخته الجليلة وابنها، فطلب من شاعر جوال أن يتقصى أخبارها، ولما وصل الشاعر إلى الجليلة طلبت منه كتم الخبر لكنه فعل عكس ذلك وأخبر جساساً بمكانهم، فأرسل الأخير أخاه سلطان بن مرة الذي اعتذر للجليلة والجرو وطلب منهما العودة، وبالفعل عاد الجرو الى أخواله من آل مرة.

وذات ليلة رأى الزير أخاه كليباً في المنام فعاتبه على السكوت عن ثأره وترك جساس حياً حتى الآن، فطلب الزير ضارباً للرمل أن يعطيه الأخبار القادمة، فبشره هذا من أن جساساً سيقتل بعد ايام على يد ولد من صلب كليب، ففرح الزير واستبشر بذلك.

ولما عادت الحرب طلب الجرو من خاله جساس أن يعطيه حصانه «الأخرج» لقتل الزير وهو لا يدري أنه عمه، فخرج الجرو لمبارزة الزير الذي مال قلبه له وشك في أنه أبن أخيه فلم يقتله، ولما سأل الزير اليمامة عن حال أمها لما خرجت من الديار إلى أهلها ذكرت له بأنها كانت حاملاً، فأخبرها بما أحس فيه تجاه الجرو، فقالت اليمامة أنها ستختبر قدراته في الرماية لمعرفة إذا ما كان أخيها حقاً أم لا.

خرجت اليمامة ورمت الجرو بثلاث تفاحات استطاع طعنها بسيفه في الهواء من المرة الأولى، فكشفت له عن حقيقة نسبه إذ أن هذه القدرة لم يكن يتقنها سوى كليب، وبالتالي فهو ابنه بلا شك، فذهب الجرو إلي أمه لتخبره عن حقيقة أبيه، فاضطرت لأخباره بعد تهديده أياها بالقتل، وهكذا عرف

الجرو حقيقة نسبه وعزم على قتل خاله جساس.

تباحث الجرو مع عمه الزير في الأمر، فقال له: «إني سأعود إلى بني بكر دون اخبارهم بما علمت، وعندما أغير عليكم معهم سأخرج لمبارزتك فضع قربه من الدم تحت جانبك الأيمن، وسأطعن القربة وأدعى أنني قد قتلتك، ولما فعل ذلك نادى الجرو خاله جساساً ليكمل قتل الزير ويقطع رأسه بنفسه، ولما اقترب جساس هجم عليه الجرو والزير فطعنه الجرو، وتقدم الزير فقطع رأس جساس وشرب من دمه.

■ ■ ■

● إنتهاء الحرب:

وهكذا انتصر الزير سالم على بني بكر وفرض عليهم عقوبات مذلة، وتسلطن الجرو على كل القبائل، وخلعت بنات كليب سود الثياب، وتزوج الجرو بثلاث زوجات، وارتاح الزير بعد هذه الحرب الطويلة.

بعد ذلك تمضي السيرة في توضيح ما حدث لولدي الجرو (تغلب، ومالك) في أحداث خرافية القصد منها ربط سيرة الزير بسيرة بني هلال لتؤكد أن الأمير هلال ما هو إلا «ابن عامر بن الأوس بن تغلب بن الجرو» الذي التقى بالنبي ﷺ، وهذا محض أكذوبة فهلال جد جاهلي هو ابن عامر بن صعصعة الهوازني القيسي المضري.

أما نهاية الزير فالسيرة تؤكد حكاية قتل العبدين له، وهي حكاية مشهورة ذكرناها سابقاً. (٦)

---

(١) تسكت السيرة عن توضيح دور أخوال كليب في الأخذ بثأر ربيعة رغم أنها ذكرت مبايعتهم للتبع وعزمهم على الإنتقام منه. !!

(٢) تذكر السيرة حواراً دار بين كليب والتبع قبل القتل إذ تذكر أن التبع طلب من المهلهل أن يمهله حتى يسمعه قصيدة من ثلاثة وسبعين بيتاً تسميها السيرة (الملحمة الكبرى للتبع حسان)، وفيها يتنبئ التبع اعتماداً على كتاب «الجفر»

المزعوم» بكافة الأحداث التي ستجري مستقبلاً من تملك كليب ومقتله على يد جساس، وظهور سيف بن ذي يزن، ومبعث النبي ﷺ ثم يفصل عهد الخلفاء الراشدين والفتنة والدولة الأموية والعباسية، وهجرة بني هلال ودولة بني أيوب وسلاطين الدولة العثمانية انتهاء بظهور علامات الساعة وقيامها.

وهذه الملحمة باختصار من أكثر تفاهات السيرة الشعبية وأجرأها على ارتكاب الضحك على الذقون!!

(٣) تذكر السيرة من أسماء البسوس أيضاً «تاج بخت» لأنها كانت تأكل جوز الهند كثيراً (؟!!).

(٤) في السيرة أن ضباع جاءت تعاتب أخيها الزير على ما فعل بابنها، ولكنه أجابها شعراً مؤكداً عزمه على الثأر لكليب، فرضيت أخته على ما فعل من قتل ابنها!!.

(٥) تورد السيرة هنا حكاية عن مهر أدهم جاء هدية للزير، وفي نفس اليوم اشترى مهراً ردئ الأصل، ورباهما أربع سنوات، ولما ركب المهر الردئ بعد هذه السنوات من العناية رمى به بعكس المهر الأصيل، وعندها قال الزير شعراً في الثناء على الخيل الأصيلة، والقصة تافهة ولا علاقة لها بسياق الأحداث!

(٦) للإطلاع على نص السيرة. راجع: دون مؤلف، قصة الزير سالم أبي ليلى المهلهل، المكتبة الثقافية، بيروت، دون تاريخ.

(مقارنة بين الرواية التاريخية والسيرة الشعبية)

يلاحظ قارى السيرة الشعبية أنها صيغت بطريقة تمزج بين الرواية التاريخية وخيالات رواة السيرة، وقد تأثر مؤلفوها بسياق أساطير جاهلية أخرى كثيرة، ولعل أهم الزيادات الموجودة في السيرة التي لا أصل لها في رواية التاريخ ما يأتي:

١- إستبدال الشعر العامي بالشعر الفصيح الذي قيل في الحرب، ومعظم الشعر العامي الموجود في السيرة الشعبية على بحر «الصخري» النبطي (الوافر في الفصحي)، ولغة الشعر عموماً قريبة من الفصحى، وهناك بعض الأشعار في السيرة بقيت على فصحويتها.

ويلاحظ أن بعض أشعار السيرة لها أصل كالمحاورة الشعرية بين جساس وأبيه عقب مقتل كليب التي حولت إلى العامية، وبيتي المهلهل قبل مقتله اللذين ظلا على حالتهما الأصلية وبعض الأبيات الأخرى.

٢- خطبة التبع للجليلة وكل ما تبعها من تحيل القيسيين وقتل كليب له، وجعل ذلك سبباً لمعركة خزازى.

٣- محاولات الجليلة المتكررة لإقناع كليب بقتل الزير، وكلها أمور لا علاقة للروايات التاريخية بها.

٤- غياب الزير لدى اليهود وما تبع ذلك من أحداث، وهي من زيادات السيرة المفتعلة.

٥- نقل مكان الأحداث من بادية الجزيرة العربية إلى مدينة دمشق، والتصرف في المواضع كـ «وادي الذئاب» بدل الذنائب، واقتراح مواقع لا وجود لها في الحقيقة مثل «عقبة الريحان» و«وادي الحصا والجندل»، وغير ذلك

مما يوجد في السيرة ولا أصل له في الواقع.

٦- الحديث عن ذرية كليب والأحداث التي جرت لهم بعد انتهاء الحرب، ومسمى «الجرو» للهجرس بالإضافة إلى محاولة إيصال نسبهم ببني هلال أصحاب السيرة والتغريبة!

٧- لم يرد في روايات التاريخ أن همام بن مرة كان متزوجاً من أخت لكليب تدعى «ضباع» إلا أن الثابت من «جمهرة أنساب العرب» أن أم أربعة من بنيه كانت تغلبية لم يوضح ابن حزم اسمها، وبالتالي فالظاهر أنه لا وجود تاريخياً لشخصية «ضباع» التي أعطتها السيرة دوراً مهماً في الأحداث.

٨- السيرة لا تتطرق إلى بعض الأحداث المهمة في الرواية التاريخية، ومنها: مقتل جساس على يد سرية أبي نويرة - مقتل بجير - أسر المهلهل وتعطيشه - تزويجه ابنته في اليمن.

٩- أعطت السيرة أدواراً مهمة لضاربي الرمل والمنجمين من خلال قدرتهم على معرفة المستقبل، وهو تأثر بشخصيات الكهّان في الجاهلية والذين لم تتطرق الروايات التاريخية إلى ذكرهم في التأثير على زي من أحداث حرب البسوس.

١٠- إستحدثت السيرة الشعبية بعض الشخصيات التي لا وجود لها إلا في خيالات مؤلفيها من أمثال «ضباع، وسلطان بن مرة، وودرعان بن ربيعة، والوزير نبهان، وحكمون اليهودي، وبرجيس الصليبي، والعابد نعمان، ومنجد بن وائل» وغيرهم.

كما أنها استقدمت شخصيات أخرى ليس لها علاقة بحرب البسوس فضمتها إلى شخصيات السيرة من أمثل التبع حسّان اليماني الذي ينسب إليه في الأصل القضاء على جديس قوم زرقاء اليمامة كما أنها أدخلت في الأحداث الأخيرة من السيرة شخصيات عنترة وعمرو بن معد يكرب وهلال بن عامر ربما للإستفادة من شهرتهم في تسويق السيرة شعبياً.

ويلاحظ أن السيرة ضخمت من أدوار هامشية في الحرب، وأعطتها أدواراً مهمة لعدي أخي الزير والفند الزماني واليمامة بنت كليب، ولم تذكر روايات

المؤرخين عنهم سوى أسطر قليلة.

١١- حاولت السيرة إلصاق طائفة «النوَر» في بلاد الشام بالنتائج التي أدت إليها نهاية حرب البسوس، وهو أمر لا يعدو أكثر من أكذوبة من أكاذيب الرواة وانتحالاتهم.

الفصل الرابع:

حكاية الزير
كما رواها المسلسل التلفزيوني



شخصية اليمامة بنت كليب كما ظهرت في الحلقات الأخيرة من المسلسل بعد إصابتها بالجنون.

(حول المسلسل التلفزيوني)

أربعون حلقة تلفزيونية صاغها المؤلف الشاعر السوري ممدوح عدوان والمخرج حاتم علي لتقديم «حرب البسوس» في مسلسل عرض قبل عام مضى وحاز نجاحاً جماهيرياً أعاد الإهتمام الشعبي بهذه الحرب، ومن تابع المسلسل يجد أن المؤلف اعتمد على ثلاثة مصادر رئيسة في تقديم نصه المكتوب عن الحرب، وهي:

● أولاً: الرواية التاريخية، ويلاحظ المتابع أن المؤلف قد استفاد من كل سطر ورد في المراجع الأساسية للحكاية فلم يهمل أي رواية بل أنه أخذ الرواية المتضاربة أحياناً ووافق بينها ووظفها في مشاهد المسلسل كالروايتين المختلفتين لمقتل جساس والمهلهل.

● ثانياً: لم يهمل المؤلف «السيرة الشعبية» فأخذ معظم حوادثها وإن تخلص من مبالغاتها وتعارضها أحياناً مع الرواية التاريخية بعمليات جراحية توفيقية يحسد عليها، وأعطى السيرة مساحة واسعة من المسلسل دون أن يجعلها تصبغ السياق العام له باستثناء حكاية التبع اليماني التي أعطاها حيّزاً كبيراً من مساحة الحلقات الأولى من المسلسل.

● ثالثاً: إعتمد على موهبته كمؤلف وشاعر في توليد مواقف جديدة وعلاقات جديدة، وتقديم تفسيرات موضوعية لبعض الأحداث بل وأعطى الحوارات لغة راقية فيها من الشعر الأثر الواضح.

وأعتقد أن المسلسل حاز نجاحاً جماهيرياً كبيراً للدرجة التي سمعنا فيها أخباراً عن تعرض بعض المشاهدين لأزمات قلبية تأثراً ببعض الأحداث وحدوث خلاف عشائري في سوريا تحول إلى نزاع مسلح بسبب تفسير الأحداث، وما هذا إلا لأسباب كثيرة من أهمها:

- الجاذبية الأخاذة التي تحملها حكاية الحرب في الأساس، والطابع

الإنساني الذي اصطبغت به والمتمثل في بحث أخ عن ثأر أخيه المقتول ظلماً.

- النسيج المتقن الذي صيغت به أحداث المسلسل بالإعتماد على المصادر الثلاثة السابق ذكرها.

- حجم الإنتاج الكبير الذي تمثل في الصرف السخي على المسلسل من ممثلين وتقنيات إنتاج ومجاميع بشرية وإمكانات مشهدية غنية في إطار رغبة صادقة في تصوير واقعي للمجتمع الجاهلي رغم البهارات التي لا يمكن للأعمال التلفزيونية إهمالها في الغالب.

- لغة المسلسل الراقية حتى أن نصوصاً كثيرة من الحوار كانت تعد قطعاً أدبية جيدة سواء المنقولة أصلاً من الروايات التاريخية أو تلك التي أضافها المؤلف الذي هو في الأساس شاعر وأديب مبدع.

• • •

.... وفي ما يلي نعرض مختصراً لأحداث المسلسل من واقع المشاهدة الشخصية لحلقاته، وذلك ليتمكن القارئ الذي لم يتابع المسلسل من معايشة النسيج الكلي للعمل، وبالتالي يمكنه إجراء المقارنة المتوخاة بين ما جاء فيه، وبين ما جاء في الأساس التاريخي أو الشعبي للحرب.

وبالطبع فأن اختصار أربعين حلقة ومئات المشاهد التلفزيونية في بضع وريقات من هذا الكتاب لن يخلو في النهاية من ظلم فادح للعمل، ولكن «ما لا يدرك جله لا يترك كله» كما يقول المثل العربي القديم:

﴿مختصر أحداث المسلسل﴾

يبدأ المسلسل بتوافق «وائل» بن ربيعة (كليب فيما بعد) مع عمه مرة وأولاده وحبه لابنة عمه «الجليلة»، ويظهر طموح وائل للزعامة في الحلقات الأولى عندما يضيّق صهرهم «لبيد» عامل الكنديين عليهم في أخذ الضريبة السنوية المطلوبة لملك كندة وكذلك على المضريين في إحدى سنوات الجدب، وعندما يقوم لبيد بلطم زوجته الزهراء أخت وائل يقود الأخير قومه من تغلبيين وبكريين فيقتلون لبيداً الأمر الذي يغضب ملك كندة عليهم إلا أنه يتريث في الإنتقام منهم.

وبينما يستعد وائل للزواج من الجليلة تقوم «البسوس» خالة جساس بن مرة وهي تاجرة تسافر بين الشام واليمن بترغيب التبع حسّان اليماني بالزواج من الجليلة طمعاً في أن تكون خالة الملكة القادمة بالإضافة إلى طموحها الشخصي بالزواج من الوزير نبهان المرشح للعرش من بعد التبع.

يأتي الوزير نبهان لخطبة الجليلة لمليكه التبع، وتدور الأحداث كما ترويها السيرة في الغالب من تنكّر وائل في صورة مهرج الجليلة وإخفاء الفرسان في الصناديق بعد تخفيف المبالغات التي تكتنفها، ويقتل وائل التبع وهو في مخدع الجليلة بعد مبارزة بينهما كما يُقتل الوزير نبهان أيضاً في نفس الليلة، وعندما يلحق بهم ابن عم التبع المدعو «عمران» تدور معركة «خزازى» التي تنتهي بانتصار وائل وتمليكه على العرب.

يتزوج وائل من الجليلة ويبدأ في إنشاء مشروع حضاري لتنظيم القبائل ومنع الغزوات والصيد وحماية القوافل مما يولد كراهية جساس له بالإضافة إلى تكبر وائل الذي صار يدعى الآن «كليباً» على قومه.

يظهر حقد البسوس على كليب لقتله الوزير نبهان الذي كانت تطمح بالزواج منه، فتتخذ من قتل كليب ناقتها «سراب» للأسباب المذكورة تاريخياً حجة لتحريض جساس على قتل كليب.

يلحق جساس بكليب فيطعنه في ظهره بعد أن رفض كليب مناقشته، ويكتب الأخير بدمه على صخرة في الجبل جملة «لا تصالح»، وهو بذلك يوجهها لأخيه المهلهل «سالم الزير» الغارق في ملذاته من خمر ونساء، وينشغل الزير بالبكاء على قبر أخيه حتى ييأس قومه منه فيكسرون رماحهم ويعقرون خيولهم أمامه، وعندها يصحو المهلهل فيشمر عن ساعديه للحرب، ويبدأ بشن الحرب على البكريين رافضاً محاولات الصلح متخذاً من مقولة ابنة أخيه اليمامة بنت كليب «أريد أبي حياً» شعاراً يحمسه لمواصلة الحرب.

تطول أيام الحرب ويفتك الزير بالبكريين رغم فشل محاولاته لقتل جساس، ومحاولة أبي نويرة التغلبي الذي كان قتل جساس هو المهر الذي طلبته منه محبوبته «الزهراء» أخت الزير لزواجه منها.

ويتمكن البكريون من جرح الزير في إحدى المعارك بعد كمين نصبوه له بإيقاعه في الحفرة، وتقوم اليمامة بقذفه في البحر على ألواح من الخشب بينما تقوم ضباع أخت المهلهل وهي زوجة همام بن مرة بمساعدة الجليلة بحرق جثة أحد القتلى والزعم بأنها جثة الزير.

تُلقي الأمواج الزير على ديار قوم غريبي الهيئة فاقداً للذاكرة (١١)، فيعطفون عليه ويطلقون عليه إسم «تمساح»، ويظل بينهم مستضعفاً حتى تعود إليه الذاكرة بعد سبع سنوات خلال قتال مع لصوص هجموا على مستضيفيه حيث يثأر الزير لصالحهم أثناء القتال وتعود إليه الذاكرة، وبعد أن يتذكر حقيقته يعود الزير إلى قومه.

كان جساس قد استضعف نساء تغلب بعد ذهاب الزير فمنعهن من إشعال النار وإعداد الطعام واستقبال الضيوف، وتصادف عودة الزير يوم تزويجه ابنته من الهجرس بن كليب الذي كان يعيش بينهم وقد أخبروه أنه ابن شاليش بن مرة، وأن الجليلة التي قامت بتربيته هي عمته وليست أمه.

يحضر الزير العرس متنكراً فيلتقي بجساس دون أن يعرفه، ويقوم باستعادة حصانه الموجود عند البكريين ويعلن عودته بصرخة عالية، وتبيت نساء تغلب تلك الليلة في فرح عارم.

تعود الحرب مرة ثانية ويرجع الزير لإلحاق الهزائم بأعدائه بمساعدة صديقه امرئ القيس بن أبان وصهره كلثوم التغلبي، وخلال هذه الفترة يعرف الهجرس حقيقة نسبه فينضم إلى أهله ويتمكن من قتل خاله جساس في مبارزة، ويقرر بذلك انتهاء حربه إلا أن الزير يصمم على إكمال الحرب فيقوم بقتل رسول للصلح هو جبير بن الحارث بن عباد أرسله أبوه الذي كان قد اعتزل الحرب مما يشعل الحرب بانضمام الحارث وقومه.

وكان جبير هذا على علاقة حب باليمامة بنت كليب التي تصدم بقتله على هذه الطريقة، فتصاب الجنون وتظل هذه حالتها حتى نهاية المسلسل.

تحدث معركة «تحلاق اللمم» كما وردت في الرواية التاريخية فتجز ناصية الزير ويصاب بالذل وانكسار الظهر حيث يظل مكسور الظهر يسوق حماره حتى مقتله، وهنا تتسارع أحداث المسلسل فيرحل الزير إلى اليمن ويزوّج ابنته هناك مرغماً ثم يعود فيأسره عمرو البكري ويذله، وعندما يشبب الزير بزوجة آسره يمنعه الأخير من الشراب حتى يرد الجمل كما هو مذكور في الروايات التاريخية، وعندما يتم إنقاذ الزير من الموت عطشاً في اللحظة الأخيرة يعود إلى قومه.

يرحل الزير هو وعبداه فيقرران قتله في الصحراء، وتحدث الرواية القائلة بقتله وبيتي الشعر اللذين أخبر بقاتليه من خلالهما ثم يكون المشهد الأخير في المسلسل حيث تذهب اليمامة إلى حيث جثة عمها فتحمله على ألواح الخشب وتربطه بحصان وتذهب به بعيداً في الصحراء.

إنطباعات حول المسلسل

أحاول في السطور القادمة إعطاء قراءة إنطباعية مختصرة عن المسلسل قد لا تكون نقداً متخصصاً في العمل، ولكنها مجرد ملاحظات أحاول من خلالها إستنطاق مشاهدتي للمسلسل في النقاط الآتية:

● **الأحداث:**

بدا واضحاً أن المسلسل اعتمد الرواية التاريخية كخامة أساسية لنسج الأحداث، ولكنه وظف السيرة لملء الفراغات وتبهير الأحداث إن صحت العبارة، فاستفاد من السيرة حكاية التبع بعد تهذيب الطابع الخرافي الذي اتسمت به في السيرة، وكذلك أخذ شيئاً من حكاية غياب الزير لدى اليهود فغير فيها كثيراً لدرجة أنه ألف منها حكاية مغايرة ربما لجعلها أكثر موافقة لطبيعة الفترة التاريخية إضافة إلي رغبته في الابتعاد عن إشكالية جعل الزير مناصراً لليهود، وهو الأمر الذي لا تتقبله الذائقة العربية في ظل الظروف السياسية الراهنة إلا أنه ألمح لطبيعة القوم الذين أقام بينهم الزير في غيبته من خلال الملابس والأسماء.

وربما لظروف الدراما العربية المائلة لحكايات العشق والغرام فقد قام المؤلف ممدوح عدوان بنسج قصص حب لم تعرفها الرواية التاريخية والسيرة الشعبية على حد سواء، وذلك في تأليف قصة حب بين أبي نويره والزهراء شقيقة الزير، وقصة الحب الدامية بين اليمامة وبجير بن الحارث (أو جبير كما ورد في المسسل) كما أعطي أبعاداً لدوافع البسوس (المرأة) لا تطابق ما ورد في الرواية التاريخية والسيرة، ويلاحظ هنا أن المؤلف حاول الإستفادة من الروايات المختلفة لنهاية الزير ومقتل جساس في المسلسل ليعطي زخماً أكبر لأحداث المسلسل.

ويلاحظ هنا أيضاً أن المسلسل أدخل صوت الراوي الشعبي ورسومات فلكلورية لشرح بعض الأحداث التي قد لا يستسيغها المنطق في رغبة واضحة

للمزاوجة بين ما هو تاريخي وما هو أسطوري داخل ثنايا المسلسل.

● الشخصيات:

إلتزم المؤلف بغالب الشخصيات التي وردت في الرواية التاريخية، وانتقى ما يهمه من شخصيات السيرة كما أضاف شخصيات لا وجود لها في السيرة أو الروايات التاريخية لتدعيم سياق الأحداث كشخصيات نساء الحانة التي يتردد عليها الزير وسعدل التاجر المنافس للبسوس وأخوال جساس كما أنه ضخّم أدوار بعض الشخصيات التي لم يكن لها ذكر بهذا الحجم في الحقيقة مثل امرئ القيس بن أبان الذي حوّله المسلسل إلى تاجر تغلبي وراع لشؤون القبيلة في غياب الزير وممّول اقتصادي للجزء الأخير من الحرب.

والأمر نفسه ينطبق أيضاً على أبي نويرة التغلبي الذي تحوّل إلى عاشق للزهراء أخت كليب، والحارث بن عباد الذي فجّر المؤلف من خلال شخصيته مفارقات كثيرة أعطته ما يستحقه كشخصية حكيمة التزمت الحياد ثم قلبت الموازين حينما استثيرت.

ولا يمكن إهمال التنويه بالتغيير الجذري الذي أصاب شخصية جحدر البكري الفارس ذي النسب والمكانة ليتحول في المسلسل إلى مأساة إنسانية تتأرجح بين المهانة والشجاعة المكبوتة، وقد قدمه المؤلف في سياق كاريكاتوري جعله من أكثر شخصيات المسلسل إثارة للإعجاب.

● الأسماء:

إلتزم المؤلف الشاعر السوري ممدوح عدوان في مسلسل «الزير سالم» بغالب الأسماء للشخصيات والمواقع سواء تلك وردت في الرواية التاريخية أو السيرة الشعبية وزاوج فيما بينها إلا فيما يتعلق بتغيرات قليلة أوضحها تغييره لاسم بجير بن الحارث بن عباد إلى «جبير» ربما لجعله أكثر ألفة في الأسماع ولا أرى أن ذلك كان ضرورياً إذ أن في المسلسل أسماء أكثر غرابة من «بجير» كما أنه أعتمد اسم «سالم» للزير، وهو الإسم الذي لم يرد مطلقاً في الرواية التاريخية وهو من إضافات السيرة الشعبية، وكذلك إسم «سعاد» للبسوس وهو من إضافات السيرة أيضاً.

كما أنه استخدم أسماء كثيرة لشخصيات عابرة في المسلسل ولّدها لخدمة النص، وهو يستوحي هذه الأسماء من طبيعة العصر الجاهلي والأعلام المشهورين فيه.

● الديكور والملابس:

من إبداعات المسلسل طبيعة المباني والأجواء التي صوّر خلالها المسلسل إذ أنها كانت توحي بفخامة الإنتاج، وإن كان المخرج قد سعى إلى تصوير حياة أبطال الحكاية في بيوت طينية هي أشبه بالقلاع النجدية مع بعض الزخرفات والألوان بينما جعل الخيام وبيوت الشعر مساكن للفقراء في المسلسل.

ولم يرد في الروايات التاريخية ما يفيد بهذه الحياة الحضرية إذ أن تغلب وبكر كانا من القبائل البدوية، ولكن هذا الإبهار في المباني يحسب للمسلسل خاصة مع الرغبة الحماسية لتصوير حضارة العرب قبل الإسلام.

ويشار هنا إلى أن المسلسل تأثر بالصوة النمطية لمجالس الخلفاء التي تظهرها المسلسلات التاريخية في تصوير مجلس كليب ومن بعده مجلس الزير وجساس إلا أنه قدم صوراً مبهرة للمشاهد - بغض النظر عن واقعيتها - لحياة الصحراء وطقوس الصيد والرعي والقتال كما نفذ مشاهد قتالية رائعة ولم ينس الإبهار في الإضاءة وإشعال النار والأعراس وحانات اللهو وطريقة طهور الطعام، وغير ذلك.

أما فيما يتعلق بالملابس فالمسلسل تأثر بحكاية القلائد والمجوهرات التي يرتديها سادة الجاهلية (وهي من تخيلات المسلسلات التاريخية أيضاً!!)، ولكن على العموم لم تكن الملابس فنتازية الطابع إلا في حالات بسيطة كما وفّق المسلسل في تقديم ملابس النساء على وجه الخصوص فكانت في الغالب بسيطة وشبيهة بملابس البدويات في عصور البداوة الأخيرة مما أعطى صورة واقعية في ذهن المشاهد.

الفصل الخامس

أصداء حرب البسوس
في الأدب العربي



التأثير الأدبي للبسوس

غير خاف ما مثلته «حرب البسوس» من علامة فارقة في تراثنا العربي، فقد تمت أسطرتها منذ وقت مبكر وصارت تتقاذفها الروايات التاريخية المختلفة وانتحالات الرواة من ذوي الأمانة التاريخية وأولئك من أصحاب الجرأة المدهشة على الكذب وانتحال القصص والأشعار.

ويمكننا هنا الزعم بأن السيرة الشعبية الموجودة لدينا حالياً بلغتها المتهالكة وأشعارها العامية ما هي إلا وليدة لسيرة أخرى كانت مكتوبة بالفصحى ظهرت في عصور متأخرة، وهي التي جعلت تراث الحرب الشعري بهذا الحجم الكبير الذي نراه لدى كتاب سلمان الصفواني «تاريخ الحروب العربية» وغيره ناهيك عن الأمثال العربية المنسوبة للحرب.

وظل إسم البسوس وشخوص حربها يتردد خلال القرون الإسلامية المختلفة منذ العصر الإسلامي الأول كما رأينا في أشعار النابغة الجعدي إلى القرن الثالث الهجري كما نرى في شعر أبي فراس الحمداني (وهو تغلبي النسب) كما في قوله:

وما نحن إلاّ «وائلٌ» ومهلهلٌ
صفاءً وإلا «مالكٌ» و«متمّم»

وفي نفس العصر نقرأ لأبي نواس متحدثاً عن بخيل يدعى «إسماعيل»، فيشبه مكانة الرغيف في نفسه كمكانة كليب الذي ضرب به المثل في العزة:

وما خبزه إلا كليب بن وائلِ
ليالي يحمي عزّه منبت البقلِ
وإذ هو لا يستبّ خصمان عنده
ولا الصوت مرفوعٌ بجدٍّ ولا هزل
فإنْ خبز «إسماعيل» حلّ به الذي
أصاب كليباً.. لم يكن ذاك عن ذلٍّ

ولكن قضاءٌ ليس يسطاع ردّه

بحيلة ذي دهيٍ ولا مكر ذي عقل (١)

وتستمر البسوس ورموزها تترد في جوانب التاريخ الإسلامي فتتردد شعراً ونثراً في كتب المتقدمين والمتأخرين، وتؤلف الكتب وتجمع الدواوين التي تتحدث عن الحرب وشخوصها مادة لها حتى نجد شاعراً نبطياً شهيراً سبق عصر التدوين في المنطقة هو محمد العبدالله العوني (توفي سنة ١٩٢٢م) يستشهد بشخوص الحرب عندما يقول:

ولولا «أبو ثامر» برد حرّ خاطري

فرض سنّة الشغموم وايتم اطفالها

سنّة «مهلهل» مع «كليبٍ» خليصه

فرضها أبو ثامر وجدّد اسمالها (٢)

وهو في هذين البيت يمدح الشيخ سعدون بن منصور السعدون شيخ المنتفق على سعيه للأخذ بثأر أخيه «عبدالله» المقتول في معركة الصريف سنة ١٩٠١م.

وصارت رموز حرب البسوس من الرموز المفضلة في الشعر العربي الحديث عموماً إذ أنها رموز غنية وحاضرة في ذهن المتلقي العادي، وأذكر أنني استخدمت هذا الرمز في قصيدة لي عن كارثة احتلال الكويت بعنوان «البيان الختامي لحرب البسو«» أقول في أولها:

(ليلٌ «بسوسيّ» الحوافرِ

ينتحي صدراً

ويغرز رمحه في قلب شمسكَ

إذ تكالب حولها سرب الرمادْ) (٣)

أما أشهر القصائد في شعرنا الحديث استخداماً لرمزية «حرب البسوس فهي تلك الملحمة المعنونة بـ (أقوال جديدة عن حرب البسوس) للشاعر المصري الراحل أمل دنقل الذي يقول:

لا تصالحْ

ولو منحوك الذهبْ

أتُرى حين أفقأ عينيكَ، ثم أثبّت جوهرتين مكانهما

هل ترى؟

هي أشياء لا تُشترى..:

ذكريات الطفولة بين أخيكَ وبينكَ،

حسّكما - فجأة - بالرجولةِ،

هذا الحياء الذي يكبت الشوق.. حين تعانقهُ،

الصمت - مبتسمين - لتأنيب أمكما..

وكأنكما ما تزالان طفلين!

تلك الطمأنينة الأبديّة بينكما:

أن سيفان سيفكَ..

صوتان صوتكَ

أنك إن متَّ:

للبيت ربٌّ، وللطفل أبْ.

وهل يصير دمي - بين عينيك - ماءً؟

أتنسى ردائي الملطّخ..

تلبس - فوق دمائى - ثياباً مطرّزةً بالقصبْ؟

إنّها الحربُ!

قد تثقل القلب لكنّ خلفك عار العربْ

لا تصالح

ولا تتوخّ الهربْ!

المصادر والمراجع

١- أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام (مطبوع مع شرح ديوان امرئ القيس): لحسن السندوبي، المكتبة الثقافية، بيروت، دون تاريخ.

٢- الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره: لإيليا حاوي، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.

٣- أسباب النزول: لأبي حسن علي النيسابوري، عالم الكتب، بيروت، دون تاريخ.

٤- أشعار الشعراء الستة الجاهليين: للأعلم الشنتمري، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.

٥- الأعلام: لخير الدين الزركلي، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.

٦- الأغاني: لأبي فرج علي الأصفهاني، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

٧- الأعمال الشعرية الكاملة: لأمل دنقل، ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م.

٨- أمثال العرب: للمفضل الضبي، ط١، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

٩- أنساب قبائل عنزة: عبدالله بن عبار، دون ناشر، ١٩٨٦م.

١٠- الأنوار ومحاسن الأشعار: لأبي حسن علي العدوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٧م.

١١- أيام العرب في الجاهلية: لمحمد جاد المولى وآخرين، المكتبة العصرية، صيدا، دون تاريخ.

١٢- تاريخ الحروب العربية: لسلمان الصفواني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٣- تلويحات: لأحمد الفهد العريفي، الرياض، ١٤١٧هـ.

١٤- جمع الجواهر في الملح والنوادر: لإبراهيم القيرواني، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.

١٥- جمهرة أنساب العرب: لإبن حزم الأندلسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

١٦- دعوة عشق للأنثى الأخيرة: لإبراهيم الخالدي، ط١، الكويت، ١٩٩٤م.

١٧- ديوان حمود الناصر البدر: لعبدالله الدويش، ط٢، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨١م.

١٨- ديوان محمد العبدالله العوني: عبدالله الحاتم، ط١، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٤م.

١٩- السيرة النبوية: لابن كثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

٢٠- شرح ديوان أبي فراس الحمداني: لابن خالويه، مؤسسة جائزة عبدالعزيز البابطين، الكويت، ٢٠٠٠م.

٢١- شرح المعلقات العشر: لأحمد الشنقيطي، دار الأندلس، بيروت، دون تاريخ.

٢٢- شعراء تغلب في الجاهلية: لعلي أبي زيد، ط١، الكويت، ٢٠٠٠م.

٢٣- طبقات الشعراء: لمحمد بن سلام، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٤- العقد الفريد: لابن عبدربه الأندلسي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٥- علي بن المقرب العيوني حياته وشعره: لعلي الخضيري، ط٢، مطابع الشريف، الرياض، ١٩٩٢م.

٢٦- في الأدب الجاهلي: لطه حسين، ط١٦، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٩م.

٢٧- قصة الزير سالم أبو ليلى المهلهل: دون مؤلف، المكتبة الثقافية، بيروت، دون تاريخ.

٢٨- معجم الشعراء: لمحمد المرزباني، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

٢٩- الكامل في التاريخ: لابن الأثير، ط٦، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

٣٠- معجم أسماء خيل العرب وفرسانها: لحمد الجاسر، ط١، الرياض، ١٩٩٤م.

٣١- معجم البلدان: ياقوت الحموي، (موقع الوراق في شبكة الإنترنت).

٣٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: لعلي جواد الطاهر، ١، (موقع الوراق في شبكة الإنترنت).

٣٣- الموروث الخالد لبني خالد:لخالد بن فهد الخالدي، ط١، مطابع الحنان، الكويت، ٢٠٠١م.

٣٤- موسوعة العشائر العراقية: لثامر العامري، مكتبة الصفا والمروى، لندن، دون تاريخ.

٣٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لإبن خلكان، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م.

مؤلف الكتاب



● إبراهيم حامد الخالدي :

● كاتب صحفي وشاعر كويتي .

● مواليد الكويت سنة ١٩٧١م .

● عضو رابطة الأدباء في الكويت ، وعضو جمعية الصحفيين الكويتية .

● حاصل على بكالوريوس تربية ويعمل مدرساً.

● يعمل بالصحافة الثقافية منذ عام ١٩٩١م ، وذلك في جريدة صوت الكويت ثم جريدة الوطن، وهو الآن صحفي في جريدة السياسة الكويتية.

● مستشار تحرير مجلة المختلف.

● شارك في العديد من الملتقيات الثقافية داخل الكويت وخارجها، وأقام أمسيات شعرية في الكويت والرياض والمنامة ومسقط والأسكندرية وباريس .

● **صدر له :**

١- دعوة عشق للأنثى الأخيرة (شعر فصيح)، الكويت، ١٩٩٤م.

٢- عاد من حيث جاء (شعر فصيح)، الكويت، ١٩٩٦م.

٣- المستطرف النبطي، الكويت، ١٩٩٨م.

٤- ديوان الفارس الشيخ مشعان الهذال (جمع وتحقيق)، الكويت، ١٩٩٩م.

٥- ديوان أمير الشعر الغزلي محسن الهزاني (جمع وتحقيق)، الكويت، ١٩٩٩م.

٦- ديوان الفارس الأمير عبيد الرشيد (جمع وتحقيق)، الكويت، ٢٠٠٠م.

٧- ديوان الفارس الشيخ تركي بن حميد (جمع وتحقيق)، الكويت، ٢٠٠٠م.

٨ - طواريق النبط (دراسة في الشكل الفني للقصيدة النبطية)، الكويت، ٢٠٠٠م.

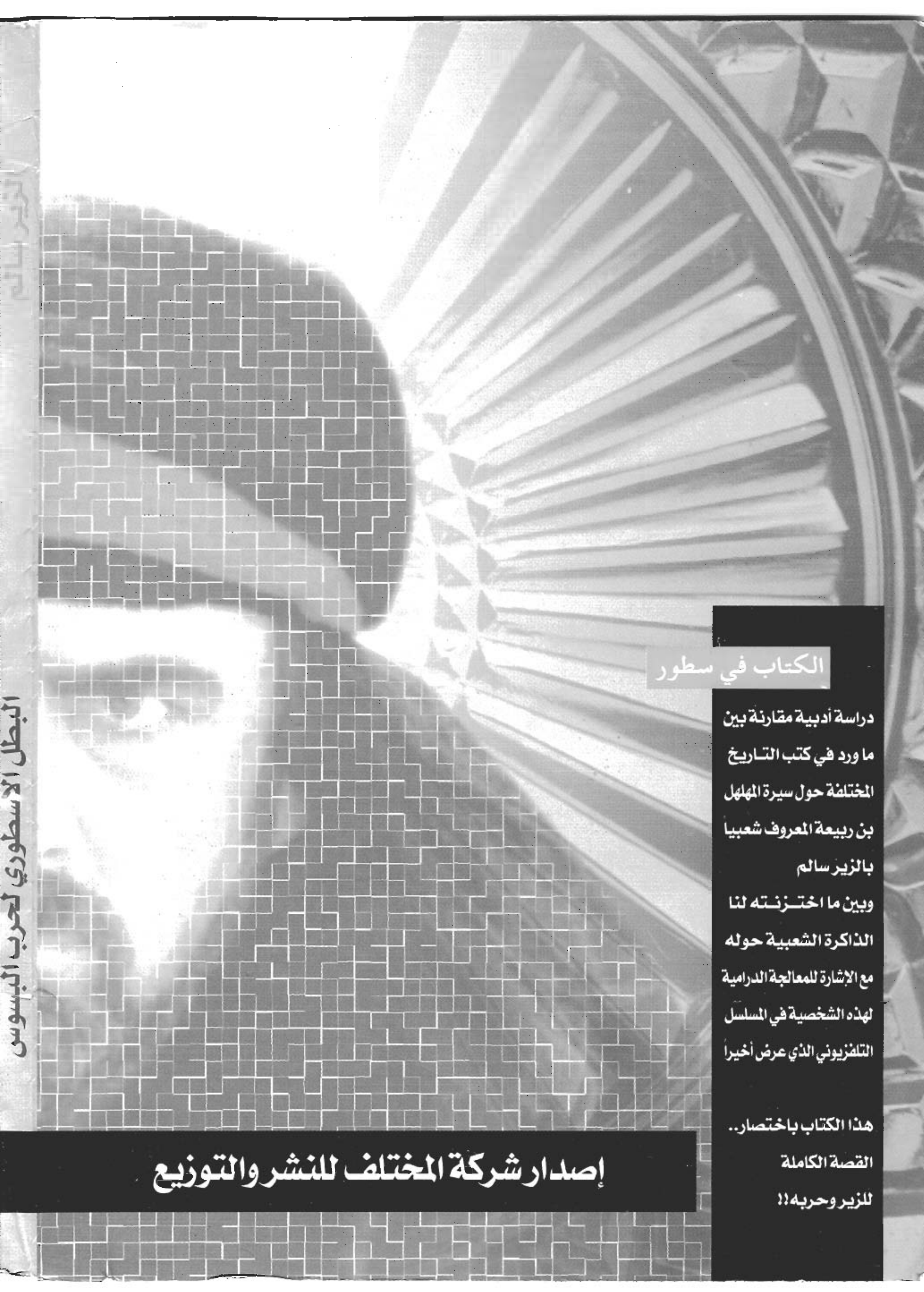
٩- تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق لعبدالله البسام (دراسة وتحقيق)، الكويت، ٢٠٠٠م.

١٠- حديث الصحراء (إعداد بالإشتراك مع الأستاذ ناصر السبيعي)، الكويت، ٢٠٠٢م.

١١- الزير سالم، الكويت، ٢٠٠٢م.

● ● ●

■ له العديد من البحوث والدراسات قيد التأليف، وديوان شعر فصيح جاهز للطبع.



الكتاب في سطور
دراسة أدبية مقارنة بين
ما ورد في كتب التـاريخ
المختلفة حول سيرة المهلهل
بن ربيعة المعروف شعبيا
بالزير سالم
وبين ما اختـزنـته لنا
الذاكرة الشعبية حوله
مع الإشارة للمعالجة الدرامية
لهذه الشخصية في المسلسل
التلفزيوني الذي عرض أخيراً
هذا الكتاب باختصار..
القصة الكاملة
للزير وحربه!!
إصدار شركة المختلف للنشر والتوزيع
البطل الأسطوري لحرب البسوس
الزير سالم